

أبو فهر
محمود محمد شاكر

مَدَائِلُ الْخَلَاءِ عَجَازِ الْقُرْآنِ

الناشر

دار المدنى بمجدة
شارع الصحافة حتى مشرفة
تليفون - فاكس : ٦٧١٣٤٢٤

مطبعة المدنى
المؤسسة السودانية بمصر
٦٨ شارع الباسية - القاهرة . ت : ٤٨٩٧٨٥١

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسوله سيدنا محمد عبده ورسوله، المبلغ عن رب العالمين رسالته بلسان عربي مبين . وعلي أبويه الرسولين الكريمين إبراهيم وإسماعيل الرسولين الكريمين أفضل الصلاة وأزكى التسليم. وعلى صحابتهم المصطفين الأخيار مصابيح الهدى وقدوة الأمة إلى يوم الدين .
أما بعد

فإن الحديث عن إعجاز القرآن لهو من أكثر الموضوعات جدلا وتشعبا ولا يزال الحديث عنه دائرا من كل وجه فهو تارة قمة البلاغة العربية والبيان الإنساني، وتارة أخرى هو للإعجاز العلمي مثل يحتذى وبيان شاف. والناس منقسمون بين هذا وذاك كل له حججه يعرضها ويتافع عنها بكل ما أوتى من قوة. ولكن أي هذه الآراء صحيح وأيها أقرب إلى بيان ما فاق به القرآن الكريم جميع الكتب السماوية المنزلة قبله، فأعجز البشر قاطبة عن معارضته على الرغم من التحدي القائم للبشر منذ نزول الآيات تلو الأخرى تطالب البشر على اختلاف ألوانهم أن يأتوا بمثله فلا يقدرون على ذلك ويقفون معجزين أمام آياته وسوره لا يسعهم سوى البحث عن أوجه إعجازه عليهم يصلوا إلى استنكاك من أي وجه جله القرآن معجزا للثقلين .

ومن هنا جاء كتاب الأستاذ محمود محمد شاكر ، باحثاً عن وجه إعجاز القرآن من وجه آخر مخالف لما سار عليه من سبقه من عرض للإعجاز . فالوجه الذي دلف منه الأستاذ شاكر إلى إعجاز القرآن لم يكن محاولة لبيان الإعجاز القرآني ذاته، بل هو محاولة لتأريخ البحث في علم إعجاز القرآن كيف جاء؟ ولم جاء؟ ثم هو فوق ذلك كما قال الأستاذ شاكر في مطلع المدخل الأول : (وهذه الفصول الثلاثة التي كتبتها عن (إعجاز القرآن)، تقصُّ عليك هذه القصة الطويلة العريضة في صفحات قلائل ، وبمنهجي في تحليل الكلام وتحليل التاريخ ، لأنه المنهج الذي التزمته فنجوت من شرِّ مُستطير ، ومن بلاءٍ ماحق . ولكني أكتب هذه القصة، بعد أن انطمست معالم كانت لائحة قديماً ثم عَفَتْ . وبعد أن عزمْتُ على أن أعْفِيكَ من المسالك الوعرة، والأشواك المتشابكة ، والظلمات المحيرة ، وحتى تألف طريقي وتعرفه معرفة تسهِّل عليَّ وعليك اقتحام المسالك والأشواك والظلمات) . فهذا الكتاب إذن ذو وجهين الأول تأريخ لعلم إعجاز القرآن كما وضعه علماؤنا قديماً ، والثاني بيان لمنهاج العلماء في النظر واستقراء لطرائق نظرهم ومداخلهم في البحث عن الإعجاز يعتمد على تحليل الكلام وتحليل التاريخ تحليلاً يهدف [لتأسيس

علم خاص هو (علم إعجاز القرآن)، يُضارع (علم البلاغة)، الذي استدعى نشأته بحثُ أهل القرنين الثالث والرابع في (إعجاز القرآن). [لذا كان البحث عن تاريخ نشأة كلمة (إعجاز القرآن) هو الأساس الأول الذي يصل بنا إلى تأسيس علم (إعجاز القرآن).. وهكذا جاء هذا الكتاب غطا فريدا بين كتب إعجاز القرآن، فهو لم يعن كسابقيه ببيان وجه الإعجاز، بل كانت جل عنايته منصرفة إلى تأسيس علم لإعجاز القرآن مستمدة أصوله من مباحث السلف.

هذا والكتاب مقسم إلى ثلاثة مداخل كل منها يقص تاريخ (إعجاز القرآن) كما نشأت صورته عند الأستاذ شاكر، كل مدخل منها ينظر إلى هذا تاريخ الإعجاز من وجه غير الأول، لكنها جميعا تصب في آخر الأمر في معين واحد ألا وهو تأسيس علم (إعجاز القرآن).

وقد نشر المدخلان الثاني والثالث منفصلين عن الأول، أما الثالث فقد نشر في كتاب مستقل بعنوان (قضية الشعر الجاهلي في كتاب ابن سلام)، وأما الثاني فقد كان مقدمة لكتاب (الظاهرة القرآنية) لمالك بن نبي. لذا فقد آثرت ضم المدخلين الأول والثاني في كتاب واحد لتكون الفائدة بهما أجدى.

بيد أن هنا أمرا لا بد من التوقف عنده لبيان ، وهو أن هذه
المدخل تقص علينا أيضا جزءا من سيرة حياة الأستاذ شاكر مع
العلم وسيرته مع الكلمات وتاريخها وقد قال في مبدأ المدخل
الثاني : (وقد كان كتب الله عليّ أن أقف مع هذا اللفظ زماناً
طويلاً ، حائراً متردداً ، وخائفاً متلذذاً ، وجازعاً متحفظاً ، وكاتماً
حيرتي عن قلبي ولساني ، حتى تصرّمت سنوات ، وأنا علي شفا
جفرة من النار ، فأنقذني الله برحمته وفضله ، وسلمت بحمده
سبحانه بعد مغالطة العطب) . وهذا الذي ذكره الأستاذ شاكر
من أصعب الأمور وأشقها على النفس إذ تركها في حيرة لا يخرج
منها بريئاً إلا بعد طول مجاهدة ومعاناة تراهما ظاهرين ظهوراً بينا
في ثنايا حديثه في المدخلين .

وهنا أمر آخر لا بد من الإشارة إليه وهو أن المدخلين
الثاني والثالث قد جاءا تامين أما الأول وهو أحدثهن كتابة كما
ذكر الأستاذ شاكر لم يتمه ، إذ وقف عند الفصل العشرون بادئاً فيه
ثم لم يكمله ، ولو كان فعل لكان فتحاً وخيراً كثيراً جاءنا ، لكن
قضه الأجل كان قد وافاه قبل أن يكمل المدخل الأول .

رحمه الله رحمة واسعة جزاء ما قدم من علم للعربية
والإسلام ودافع عنهما دفاعاً هان أمامه كل مرتخص وغال ، ظل

هكذا طيلة حياته سيفه قلمه لا يتركه ولا يحيد عن رأي صواب
وحق بين حتى لو كان في هذا من المضرة والعطب ما فيهما .
جزاه الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء ، ونسأل الله أن
يدخله فسيح جناته مع الأبرار والصديقين والشهداء .

اللهم اغفر لنا خطايانا ، وذكرنا ما نسينا ، وأهملنا الصواب
لنكون خير خلف لخير سلف .

فهرمحمود سالك

القاهرة في ٢٠٠١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عِوَجًا
قِيمًا، والصلاة والسلام على المبلغ عن ربه نبينا محمد المبعوث رحمةً
للعالمين ، وصلي الله على أبويننا إبراهيم وإسماعيل وسائر النبيين .
اللهم إنا نعوذ بك من الزلزل ، ومن التسرع والخطل ، ومن ترك
مخافتك ، ومن العجب المتلف ، ومن فضول القول ، ومن التكلف
في العمل ، اللهم لا تكلنا إلى أنفسنا فضيلًا ونغوى .

(إعجاز القرآن) ، لفظ وُضِعَ في أواخر القرن الثالث
للهجرة ، ولم يَكَدْ حتى أحدث تاريخًا مستفيضًا رائعًا، شارك فيه
أكبر علماء الأمة في اللغة والبيان والتفسير وعلوم القرآن وعلم
الكلام. وسيظل هذا اللفظ باقياً ، يحدث تاريخاً لا ينقطع ، تشارك
فيه أقلام العلماء والكتاب والباحثين. وقد كان كتب الله عليَّ أن
أقف مع هذا اللفظ زماناً طويلاً ، حائرًا مترددًا ، وخائفًا متلددًا ،
وجازعًا متحفظًا ، وكاتمًا حيرتي عن قلبي ولساني ، حتى تصرمت
سنوات ، وأنا علي شفا حفرة من النار ، فأنقذني الله برحمته
وفضله ، وسلمتُ بحمده سبحانه بعد غالطة العطب .

وهذه الفصول الثلاثة التي كتبْتُها عن (إعجاز القرآن) ،
تقصُّ عليك هذه القصة الطويلة العريضة في صفحات قلائل ،
وبمنهج في تحليل الكلام وتحليل التاريخ ، لأنه المنهج الذي
التزمته فنجوت من شرٍّ مُستطير ، ومن بلاءٍ ماحقٍ . ولكني أكتب

هذه القصة، بعد أن انطمست معالم كانت لائحة قديماً ثم عَفَتْ. وبعد أن عزمتُ على أن أعْفِيكَ من المسالك الوعرة، والأشواك المتشابكة، والظلمات الحيرة، وحتى تألف طريقي وتعرفه معرفة تسهّل عليّ وعليك اقتحام المسالك والأشواك والظلمات، في كتاب آخر إن شاء الله أما هذا الكتابُ، فقد طويته على ثلاثة مداخل:

١. المدخل الأول: تاريخُ حَيَرَنِي ثم اهتديتُ.
٢. المدخل الثاني: تذوقُ رَاعِنِي حتّى تذوّقتُ.
٣. المدخل الثالث: ثرثرة أضجرتني حتى ملّلتُ.

أما المدخل الثالث: فقد كتبته في شهر ربيع الأول سنة ١٣٧٨ منذ سنواتٍ بعيدة، أداءً لحق الصحبة في الغربة، بيني وبين صديقي مالك بن نبي رحمه الله. ثم مضى زمانٌ طويلٌ فاضطرت يوماً إلى أمر، فكتبتُ (المدخل الثاني) في مدينة الرياض في شهر ربيع الآخر ١٣٩٦، ثم كتبتُ (المدخل الأول) فيما بين شهر شعبان وشهر رمضان سنة ١٣٩٦، فكان أحدثهنّ كتابةً أحقهنّ بالتقديم، وكان أقدمهنّ كتابةً أحقهنّ بالتأخير. وبهذا الترتيب، تستطيع أن

(١) المدخل الأول هو ما نقوم بنشره الآن.

(٢) المدخل الثاني نشر كمقدمة لكتاب الظاهرة القرآنية لمالك بن نبي باسم (فصل في إعجاز القرآن). وذلك في عام ١٩٥٨ وقد فضلنا ضمه ههنا لتكون الفائدة به أجدى.

(٣) المدخل الثالث نشر باسم (قضية الشعر الجاهلي في كتاب ابن سلام)

تتبين أن المدخل الثالث الذي كتبته منذ سنوات ، قد جاء تفسيره والكشف عنه في المدخل الأول ثم في المدخل الثاني.

فالمداخل الثلاثة، إذن، عرضُ مقاربٍ لقصة أيامي التي عانيتُ فيها الحيرة ولقصة فكري الذي كادت تشرّد به الثرثرة، ثم هي بعد ذلك وقبل ذلك ، جهدٌ مقصّر يريد أن يكفر عن تقصيره في حق القرآن العظيم بهذه الكلمات القلائل، ضارعًا إلى الله سبحانه أن يُفسيح في أيامي، ويعينني على متابعة القول في (إعجاز القرآن) على وجهٍ يمهد، إن شاء الله ، لتأسيس علم خاص هو (علمُ إعجاز القرآن)، يُضارع (علمُ البلاغة)، الذي استدعى نشأته بحثُ أهل القرنين الثالث والرابع في (إعجاز القرآن). وستعلم ما أريد، بعد أن تقرأ هذه المداخل الثلاثة.

اللهم إنا نعوذ بك من الحَوَر بعد الكَوَر، ومن الضلالة بعد الهدى، ومن المعصية بعد الطاعة، فسدّدنا واهدنا، واغفر لنا وتب علينا، واجعلنا من الراشدين.

أبوفهم
محمود محمد رشّاك

مصر الجديدة
شارع الشيخ حسين المرصفي رقم ٣

المدخل الأول
تاريخ هجرة نبي الله محمد ﷺ

(وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ
كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا) [الرعد ٣١]

لم يزل عسيراً عليّ أشدَّ العُسْر، أن أروضَ نفسي وقلمي على الكتابة في شأن (إعجاز القرآن) وكلما أردتُ ذلك أحيطَ بي، يأخذني ما يأخذني من القلق والحيرة والتردد، هيبةً لما أنا مُقدِّم عليه. وتمضى الأيام والليالي ذواتُ العدد، يقيدني الفرق والإشفاق والجزع، حتى أنصرف عن الكتابة بمرّة، لا لشيء، إلا لأنني أجدني قد صرت لا أملك إلا إراقةً لا حيلة لها في عجزها إلا التمني، ومع التمني الإرجاء والتأخير، ومع الإرجاء فتورُ المهمة، ومع التأخير زوال الإرادة ثم انصرافها عن شئ إلى شيء غيره. وهذا عيب غالبٌ عليّ لم أزل أعانيه منذ النشأة الأولى، أعاني أن أعجله على تناول الأيام. وسببُ هذا العيب الغالب أنى استقبلتُ ريعانَ شبابي (سنة ١٩١٩ للميلاد) مغموساً في الثروة: ثروة التعليم في مدارسنا، ثم ثروة رجال السياسة، وثرثرة أقلام الصحافة، وثرثرة أهل الأدب والفكر، وثرثرة الطوائف من أصحاب الديانة، ومالا أحصيه عدداً من ألوان هذه الثروات. كنت يومئذ غصّاً الإهاب، فتركت الثروة في نفسي وفي قلبي وفي فكري تُدوِّباً عميقةً خفيفةً، لم يزل بعضها يلازمني، لأن الثروة لم تنقطع بعد، بل زادت وطفّت في زماننا هذا.

فلما فارقتُ المدرسة الثانوية إلى الجامعة لأول نشأتها، غمرتني ثروة مدمرةٌ كان لها أبلغُ الأثر في حياتي، هي ثروة الحديث عن (الشعر الجاهلي) وأن الذي في أيدينا منه، مما يُسمَّى شعراً جاهلياً، مصنوعٌ موضوعٌ منحولٌ كله، صنعتُه الرواة في الإسلام، وأن هذا الذي عندنا منه: (لا يمثل شيئاً، ولا يدلُّ إلا على الكذب والانتحال). وهذا لفظُ صاحب الرأي بنصه.

سمعتُ هذه الثروة بأذني طالباً في الجامعة، وقرأتها يومئذٍ مراراً بعيني. وعلى أنها لم تزد قطُّ على أن تكون ثروة فارغة، كما استيقنتُ ذلك فيما بعد، إلا أنها كانت ثروة صادفتُ قلباً غصباً وفكراً غريباً، ونفساً مغموسةً في ضروبٍ مختلفةٍ من ثروة زمانها، فأحدثت في جميعها رجّةً ممزّقةً مدمّرة. وبعد لأي ما نجوتُ من شرها غريباً وحيداً مستوحشاً، أعاني في سرِّ نفسي من الغربة والوحدة والوحشة ما أعاني. وشرُّ ما لم أزل أعانيه حتى اليوم، هو القلق الكامن تحت الاطمئنان، والحيرة المستخفية من وراء اليقين، والتردد المستكنُّ في ظل العزيمة، وهذه الثلاثة هي التي تلد الهيبة المفضية إلى الإرجاء والتأخير.

ومع أن هذا التشكيك في صحة ما بأيدينا من الشعر الجاهلي، لم يكن في حقيقته سوى ثروة فارغة، إلا أنها منذ بدأت،

رمت بي في الأمر المخوف ، وهو النظرُ في شأن (إعجاز القرآن)، لأن أصحاب هذا الشعر الجاهلي، هم الذين نُزِّلَ عليهم القرآن العظيم ، وهم السابقون الذين آمنوا بأنه كلام الله سبحانه، وبأن التَّالِيهَ عليهم هو رسول الله إليهم وإلى الناس كافة ، صلى الله عليه وسلم. فلما خَلَصْتُ ، بعد زمان طويل ، من رجفة هذه الثرثرة، ناجياً من شرها بحمد الله واسترحتُ ، كان عَقْبِي الراحة ، بعد هذه الرجفة المتبادية ، إِعْرَاضاً تاماً عن الحديث في شأن (الشعر الجاهلي)، لا إِعْرَاضاً عن مُدَارَسَتِهِ وتبعه. وتطاول الإِعْرَاضُ حتى صِرْتُ أَجْدُنِي أَتَهَيَّبُ الحديث في شأنه كلما راودتني نفسي أن أفعل. بيد أن الهيبة التي لا تدانيها هيبةٌ هي التي أجدها عند الحديث عن إعجاز القرآن العظيم.

ولكن كان من رحمة الله ومن سابقِ قضائه في عبادته أن يرفع الهيبة أحياناً عن نفوسهم ، فَيُقَدِّمُ أَحَدُنَا عَلَى مَا كَانَ يَهَابُهُ كَأَنَّهُ لَمْ يَهَبُهُ قَطُّ ، وتلك خليقةٌ موروثةٌ منذ عهد أبينا آدم عليه السلام ، وقد قصَّ الله علينا قصته في مُحْكَمِ كتابه ، حين قَبَضَ الفَرْقَ والإشفاقَ والجزعَ خلائقه كلها هيبَةً ورهبةً، وانفرد دونها آدمٌ وحده كأن لم تخالط قلبه هيبةٌ ولا رهبةٌ ، وذلك حيث يقول سبحانه في شأنه وشأن سائر خلقه (إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ

وَالْأَرْضَ وَالْجِبَالَ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا
 الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا * لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ
 وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ
 وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا [الأحزاب ٧٢-٧٣]

وكذلك ما يكون منى أحياناً، وأنا من ولد آدم عليه السلام،
 تفارقني الهيبة، فأقدم على ما أهابه إقدام من لا يهاب ، و(من أشبه
 أباه فما ظلم) وأسأل الله سبحانه أن يتوب على إن أسأت ، وأن
 يتغمدني بمغفرته إن زللتُ ، وأن يدخلني في رحمته التي وسعت كل
 شيء، إنه كان غفوراً رحيمًا، كما وصف نفسه سبحانه.

٢

أستعين الله متبرئاً إليه من كل حول وقوة، راجياً أن تكون
 خطاي في الحديث عن (إعجاز القرآن) واقعةً في مواقعها، على
 مهل وأناةٍ وتوقف، لأنني أعلم أنني أسير في طريق غامض ، كثيرة
 أشواكه، مخوفةٌ جوانبه بدواعي الزلل ، مرهوبةٌ مسالكه ، ولا
 عاصم إلا الله بحوله وقوته، ثم بتأييده سبحانه وتوفيقه و (إعجاز
 القرآن)صفةٌ منصوبةٌ للدلالة على أنَّ القرآن كلام الله سبحانه
 أنزله بعلمه بلسان عربي مبين، فنزل به جبريل عليه السلام على

قلب محمد صلى الله عليه وسلم، ليكون معجزته التي تُوجب على من سمعها أن يشهد له بأنه رسولُ أرسله الله إلى الناس كافة، إنهم وجنّهم ، على اختلاف ألسنتهم وألوانهم ولفظُ (الإعجاز) مصدرُ قولنا في كل أمرٍ يريدُ الرجلُ أن يفعله أو يأتيه، فيجهدُ جهدهُ كُلّه ، فلا يستطيع أن يفعله أو يأتيه ، ويسقط عندئذٍ في (العجز) ، وهو عدم القدرة على فعل ما يريد ، تقول : (أعجزه هذا الأمرُ يُعجزه إعجازاً)، أي انقطعت قوّته دونه ، فوقع في (العجز) غير مُطيق لفعله، غير قادر على إتيانه، ويوصف هذا (الأمر) عندئذ بأنه (مُعجز) أي هو غير مقدور عليه البتّة. هذا هو مجاز اللغة في تفسير لفظ (الإعجاز).

وقد درج علماء الأمة فيما كتبوا على تسمية (آيات الأنبياء) التي أيدهم بها ربهم عند بعثتهم إلى البشر، لتكون دليلاً قاطعاً على نبوتهم عند من يشهدوا: (مُعجزات الأنبياء). فإذا أردنا أن نضع تعريفاً منتزعا من مجاز اللغة لقولهم (معجزات الأنبياء) مطابقاً لمعناه لمعنى (آيات الأنبياء) بلا زيادة ولا نقصان فإن سبيل ذلك أن نقول : إنّ الناس لا يسلّمون تسليماً لا تردّد فيه بأن (الآية) دليل نبوة لبشر مثلهم، ولرجلٍ من أنفسهم نشأ فيهم صغيراً إلى أن كبر، فادّعى ما ادّعى من النبوة، لا يسلّمون تسليماً،

حتى ينقطع شكُّهم بيقين فاصل: أنَّ الذي يشهدونه من صاحبهم خارجٌ عن طَوْقِ جميعهم، ثمَّ عن طَوْقِ جميع الخلائق، وخارجٌ أيضاً عن طَوْقِ صاحبهم الذي نشأ بينهم منذ وُلِدَ فيهم إلى أن ادَّعى ما ادَّعى من النبوة. وخروج هذه (الآية) عن طَوْقِ جميعهم، وعن طَوْقِ جميع الخلائق، معناه: عَجَزَهم وعَجَزُ جميع الخلائق، عن فعل مثل الذي شهدوه من مدَّعى النبوة. وإذا كان مدَّعى النبوة نفسه، هو بيقين في العجز عن فعلها مثلهم، فالذي آتاه هذه (المعجزة) لتكون دليلاً قاطعاً على نبوته، هو الذي لا يُعْجِزه شيء، هو الخالق البارئ المصور، بديع السموات والأرض، هو الله رب العالمين. هذا هو مجاز اللغة في تسمية (آيات الأنبياء): (معجزات الأنبياء). وإذن فمعنى (المعجزة) هو أنها الآيةُ الكاشفةُ عن عَجَزِ جميع الخلائق، المبطلة لجميع قدراتهم على مثلها، المبيِّنة عن قدرة الله الذي لا يُعْجِزه شيء في السموات والأرض. ويبيِّن أن (المعجزة) ليست من فعل النبي، ولا هي داخلَةٌ في قدرته، بل هي من عند الله (آية) ينزِّلُها عليه بمشيئته وحده، وحين يشاء سبحانه، وهذا هو صريح الدلالة التي يدلُّ عليها القرآن العظيم في قوله تعالى: (وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ) [العنكبوت ٥٠] وفي قوله تعالى: (وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ

جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لِنِجْلَتَهُمْ آيَةٌ لِيُؤْمِنَنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ
اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَلَّتْ لَا يُؤْمِنُونَ [الأنعام ١٠٩]، وآيات
أخر.

٣

وقد الجأني إلى العناية بتفسير لفظ (الإعجاز) ولفظ
(المعجزة) على ما يوجبه مجاز اللغة، أمور سوف أقتصر منها على
أمرين. ولكن مهما بلغت هذه الأمور من الخطر، فإنها لا تستطيع
أن تُسقط هذين اللفظين: (إعجاز القرآن)، و (معجزات الأنبياء)
من أقلام الكتاب المحدثين، ولا أن تنتزعه من تراث اللغة المكتوبة
في مصنفات علماء الأمة منذ القرن الثالث للهجرة إلى يومنا هذا.
فكان أعدل الطُّرُق عندي هو إثبات تعريف صحيح من مجاز اللغة
للفظ (الإعجاز) ولفظ (المعجزة)، لا يختلف الناس عليه، مهما
تباينت آراؤهم. والألفاظ التي تستقر في اللغة استقراراً شاملاً
مستفيضاً، يكون من الجهل والتهور، محاولة انتزاعها وإسقاطها
من أقلام الكتاب، ومن كتب العلماء قديماً وحديثاً، بل الواجب
الذي لا مَرِيَّةَ فيه، هو محاولة تعريفها تعريفاً مطابقاً للحق الذي
نراه، لأن الذين وضعوها وكتبوها في كتبهم ومصنفاتهم، وضعوها

وضعاً مطابقاً لِحَقِّ رَأَوْه، لا نخالفهم نحن في جوهره، وإن خالفناهم في وجوه النظر التي أوجبت عليهم وضع هذه الألفاظ. وما دام مجاز اللغة قادراً على تعريف اللفظ تعريفاً يرفع أسباب الاختلاف، ويسير بنا جميعاً على طريق مستتب، فلا معنى لإبطال ما استقرَّ عليه الكتاب والعلماء من التعبير عن الجوهر المتفق عليه.

ولقد تكاثرت على الأمور التي تدعوني إلى النظر في تعريف (الإعجاز) و (المعجزة)، على هذا الوجه الذي بينته آنفاً، ولكنني اقتصرت على أمرين، هما عندي من الخطر بمكان، وكان لهما من الخطر في مباحث علمه الأمة، مالا يخطئه قارئ كتبهم على امتداد عشرة قرون على الأقل، وكلا الأمرين يتعلق بالألفاظ وببدلالة هذه الألفاظ.

الأمر الأول : أن لفظ (الإعجاز) في قولنا : (إعجاز القرآن) ولفظ (المعجزة) في قولنا (معجزات الأنبياء)، كلاهما لفظٌ مُحدثٌ مولَّدٌ. وبيقين قاطع، لا نجدهما في كتاب الله، ولا في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم. ولم أجدَّهما في كلام أحدٍ من الصحابة، ولا في شيء من كلام التابعين ومن بعدهم، إلى أن انقضى القرن الأول من الهجرة، والقرن الثاني أيضاً، ثم نجدهما فجأةً يظهران

على خفئه في بعض ما وصلنا من كلام أهل القرن الثالث، ثم يستفيضان استفاضة ظاهرة غامرة في القرن الرابع وما بعده إلى يومنا هذا. فكلاهما إذن مُحَدَّث مُوَلَّد.

الأمر الثاني : لفظ آخر مقترن اقترانًا لا فكًا منه بلفظ (الإعجاز)، وهو لفظ (التحدي) في قولهم : إن النبي يتحلَّى أهل زمانه بما يظهر على يديه من (المعجزات). وهذا اللفظ أيضًا مُحَدَّث مُوَلَّد ، ليس في كتاب الله ولا في حديث رسوله صلى الله عليه وسلم، ولا نجده في كلام أحد من الصحابة أو التابعين وَمَنْ بَعْدَهُمْ ، إلى أن يظهر بعض الظهور في كلام أهل القرن الثالث ، ثم يستفيض هو أيضًا استفاضة غامرة ظاهرة في القرن الرابع وما بعده إلى يومنا هذا.

٤

والنظر في هذين الأمرين المقترنين لا مناص منه. وقد قَدِّمْتُ الأمر الأول ، لأنه ظاهرٌ ظهورًا شديدًا ، وهو الذي استأثر بالاستفاضة ، حتى صارت ألفاظه عناوين للكتب في (إعجاز القرآن) وللكتب وأبوابها في (معجزات الأنبياء). ولكن فقدان هذه الألفاظ الثلاثة في القرآن والحديث وكلام الصحابة والتابعين

ومن بَعْدَهُم إلى أن ظهرت بعد ذلك مُقْتَرَنَةٌ أو مفردة في زمان متقارب، يُوجب الفحص عن أسبق الثلاثة وجودًا واستعمالًا : أهو لفظ (التحدي) أم (الإعجاز) و (المعجزة). وقد فرغت أنفًا من بيان (الإعجاز) و (المعجزة)، فالآن أنظر في معنى (التحدي) وكيف جله.

و(التحدي) في أصل اللغة من قولهم : (فلان يتحدى فلانًا، أي يباريه وينازعه الغلبة ، وإلحادي : المتعمد للشيء، يقال : حَدَاه وتحدَّاه وتحرَّاه بمعنى واحد ، أي تعمَّد الأمر وقصده. ومنه قول مجاهد : كنت أتحدى القراء فأقرأ، أي أتعمد لقلههم. ويقولون أيضًا: (أنا حُدياك بهذا الأمر : أي ابرز لي وجارني فيه). هذا هو الأصل، وظاهرٌ جدًا أن معنى (التحدي) في اللغة هو: أن يتعمَّد الرجلُ المُتحدَّى فعلَ شيءٍ ، وهو يريد بفعله هذا أن يباري خصمه ويعارضه في فعله ، طالبًا بذلك مُساماته وغلبته والظهورَ عليه. فالتحدَّى، إذن ، هو الذي يقصد أن يُعارض بفعله خصمًا ، طالبًا بذلك إظهارَ قدرته وتفوقه عن طريق معارضةٍ يرتكبها هو نفسه. و(التحدي) بهذا المعنى قليل جدًا ، لا تكاد تظفرُ به في كلام الناس إلا في الزمان بعد الزمان. وأما (التحدي) الذي نحن بصده، وهو المستفيضُ على ألسنة الناس إلى اليوم، والمبثوث في

كل كتاب، فهو على عكس هذا المعنى بلا ريب، وهو أن تفعل أنت فعلاً، ثم تطالب خصمك بأن يبذل غاية جهده في معارضته والإتيان بمثله، وأنت على ثقة من أنه غير قادر على مثل هذا الفعل، طالباً بذلك إظهار عجزه وضعفه عن مُساماتِكَ أو غلبتِكَ أو الظهور عليك. وهذا هو المعنى المقصودُ عند ذكر الأنبياء، وتحذيرهم الناس بمعجزاتهم. فالنبي لا يأتي إلى شيء مذكور عند الناس بالتفوق، فيقصد أن يعارض هذا الشيء طالباً لمساماتهم والغلبة عليهم، بل يأتيهم بشيء يعلم أنه خارج عن قدرتهم، ويطالبهم بمعارضته والإتيان بمثله، طالباً لإظهار عجزهم عجزاً يُوجب عليهم التسليم له بأنه (نبي) من أنبياء الله سبحانه. وهذا عكس المعنى الأول الذي تنص عليه اللغة.

ولست أدري متى جاء هذا المجاز؟ ولا كيف جاء؟ ولكن فقدانه في كلام أهل القرنين الأول والثاني من الهجرة، هو الذي أوجب أن أقول إنه مُحَدَّث مُوَلَّد، ليس من كلام صُرْجاء العرب، وإن كان جارياً على بعض أساليبهم في مجاز اللغة. وأقدم ما وقفتُ عليه من ذكر (التحدي) بهذا المعنى المُحَدَّث، هو كلام أبي عثمان الجاحظ، (١٥٠ - ٢٥٥هـ)، ولا سيما في رسالته (حُجَجُ النبوة) وهي رسالة كتبها بعد وفاة أبي إسحق النظام سنة ٢٣١ بزمان، فيما

أرجح، وذكر فيها فتنة (خلق القرآن) التي تولى كبرها أصحابه من المعتزلة. ومع ذلك فلفظ (التحدي) لم يَجَر في كلامه إلا في الفرط والثدرة، وفي أربعة مواضع، أولها في الصفحات الأولى من رسالته، والثلاثة الأخرى متتابعات في أواخر الرسالة. وقلة استعمال هذا اللفظ في كلامه، مع ظهور حاجته إليه في سياق الحديث عن (حُجَج النبوة) دالٌّ على أن مجاز هذا اللفظ كان حديث التوليد، وأنه كان مما جرى في حديثه مع صاحبه أبى إسحق النظام (المتوفى سنة ٢٣١ هـ تقريباً)، أو حديث غيره من شيوخ المعتزلة، ولكن حدوثه لا يكاد يتجاوز أواخر القرن الثاني للهجرة، فيما أرجح.

٥

ولفظ (التحدي)، الذي نجده منذ أواخر القرن الثالث ثم القرن الرابع إلى يومنا هذا، مقترناً بلفظي (الإعجاز) و (المعجزة) هو، فيما أستظهر، أسبق الثلاثة وجوداً في لغة (المتكلمين)، وهم أصحاب علم الكلام كالمعتزلة وأشباههم. فالجاحظ = وهو خطيب الاعتزال، وأحد رؤوس فرق المعتزلة، وأقدمهم، وأكثرهم كتباً وصلت إلى أيدينا = أتى بلفظ (التحدي)، على ثُدرة، في رسائله

وكتبه، ولا سيما كتاب (حُجَج النبوة)، ثم لم يأت به إلا منفرداً، وهو أيضاً لم يذكر قط لفظ (الإعجاز) ولا لفظ (المعجزة). فهذه الانفراد، وغياب هذين اللفظين عن كتبه ورسائله غياباً ظاهراً مشهوداً، يدل دلالة قاطعة حاسمة على أن لفظ (التحدي)، من بين الألفاظ الثلاثة المقترنة أبداً في كلام من جاء بعده، هو أسبقهن توليداً، ووضعاً واستعمالاً.

ولكن وجود هذه الألفاظ الثلاثة مقترنة أبداً لا تفرق في كلام (المتكلمين) الذين جاءوا من فورهم على إثر أبي عثمان الجاحظ، أي بعد وفاته في سنة ٢٥٥ من الهجرة = توجب علينا أن نتوقف وننأى، لننظر نظراً آخر، عسى أن نهتدي معه إلى تفسير واضح لسرعة ظهور لفظ (الإعجاز) و (المعجزة)، واقتران الثلاثة بعد ذلك اقتراناً لا فكاك منه. بل لعله يلقي ضوءاً كاشفاً، يُسفر عن السبب الذي من أجله قل لفظ (التحدي) في كلام أبي عثمان، مع ظهور حاجته إليه في مثل كتابه (حُجَج النبوة). يقول أبو عثمان في أول موضع منه، ذكر فيه (التحدي):

١- لأن رجلاً من العرب لو قرأ على رجلٍ من خطبائهم وبلغائهم سورة واحدة، طويلة أو قصيرة، لتبين له في نظامها ومخرجها، وفي لفظها وطبعها أنه عاجزٌ عن مثلها، ولو تحدى بها

أبلغ العرب لظَهَر عَجْزُهُ عنها، وليس في الحرف والحرفين، والكلمة والكلمتين. ألا ترى أن الناس يتهياً في طباعهم، ويجرى على ألسنتهم، أن يقول رجلٌ منهم: (الحمدُ لله) و(إنا لله) و(على الله توكلنا) و(ربُّنا الله) و(حسبنا الله ونعم الوكيل)؟ وهذا كله في القرآن، غير أنه متفرِّق غير مجتمع. ولو أراد أنطق الناس أن يؤلف من هذا الضرب سورةً واحدةً، طويلةً أو قصيرةً، على نظم القرآن وطبعه وتأليفه ومخرجه، لما قدر عليه، ولو استعان بجميع قحطان ومعد بن عدنان). ثم يقول أبو عثمان في المواضع الثلاثة المتتابعة في آخر رسالته، حيث ذكر ترك العرب معارضة القرآن، مع طول المسألة والمطالبة، و (أن تقرِّعهم بالعجز كان فاشياً، وأن عَجَزَهم كان ظاهراً).

٢- ولو لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم تحدّاهم بالنظم والتأليف، ولم يكن أيضاً أزاح علَّتْهم حتى قال تعالى: (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَاذْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) [هود ١٣]

وعارضوني بالكذب = لقد كان في تفضيله له وتزكّيته، وتقديمه له واحتجاجه ما يدعو إلى معارضته ومُغالَبته وطلب مساويه، ولو لم يكن تحدّاهم في كل ما قلنا، وقرَّعهم بالعجز عما

وصفنا، إلا بمدحه له (أي بمدح القرآن) والإكثار فيه، لكان ذلك سبباً موجِباً لمعارضته ومُغالَبته وطلب تكذيبه، إذ كان كلامهم هو سيد عملهم، والمؤونةُ فيه أخفُّ عليهم... (فصل في كراهته، وامتناعهم عن معارضة القرآن، لعجزهم عنها)..... فحين استحكمت لغتهم، وشاعت البلاغةُ فيهم، وكثُر شعراؤهم، وفاق الناس خطبائهم بعثه الله عز وجل فتحداهم بما كانوا لا يشكون أنهم يقدرُون على أكثر منه، فلم يزل يُقرَّعهم بعجزهم، وويتنقَّصُهم على نقصهم، حتى تبين ذلك للضعفاءهم وعوامهم، كما تبين لأقويائهم وخواصهم، وكان ذلك من أعجب ما آتاه الله نبيا قط، مع سائر ما جاء به من الآيات ومن ضروب البرهانات).

وواضح كل الوضوح في هاتين الفقرتين من كتاب أبي عثمان (حُجَج النبوة) أن لفظ (التحدي) في كلامه محفوفٌ بلفظ (العجز) من جميع نواحيه، فكان أقربَ شئ أن يقول: إن القرآن (أعجز) العرب أن يأتوا بسورة من مثله، فيخرج له منه لفظ (إعجاز القرآن) أو لفظ (الإعجاز) غير مضاف، ولكنه اقتصر على قوله (يُقرَّعهم بالعجز)

وكان دانياً أيضاً كل الدنو بعد ذلك أن يصف القرآن بأنه

(مُعْجَز) وأنه هو معجزة نبينا صلى الله عليه وسلم ، وأنه (كان أعجب ما آتاه الله نبياً قطُّ مع سائر ما جله به من المعجزات ومن ضروب البرهانات)، كما قال في آخر الفقرة الثانية. فدلَّ هذا دلالةً قاطعةً على أن لفظي (الإعجاز) و(المعجزة)، لم يكونا على عهد أبي عثمان من الألفاظ الدائرة على السنة المتكلمين من المعتزلة وغيرهم.

وأمر آخر لا بد من ذكره ، ما دمنا في صُحبة أبي عثمان. ذلك أن جميع من أُلِّف في (إعجاز القرآن) ذكر لأبي عثمان كتاباً رد فيه على مقالة رأس المعتزلة أبي إسحق النظام، وهو كتاب أُلِّفه قبل كتاب (حُجَج النبوة) ، وقد وصفه الجاحظ نفسه في حُجَج النبوة فقال : (كتبت لك كتاباً أجهدتُ فيه نفسي ، وبلغتُ فيه أقصى ما يمكن مثلي.... فلم أدع فيه مسألة لرافضي ولا لحدِيثي ولا لحشوي.... ولا لأصحاب النظام ، ولن نجم بعد النظام، ممن يزعم أن القرآن حق ، وليس تأليفه بحجَّة ، وأنه تنزيلٌ، وليس برهان ولا دلالة. فلما ظننتُ أني قد بلغت أقصى محبَّتكَ.... أتاني كتابُكَ تذكر أنك لم تُردِّ الاحتجاج لنظم القرآن ، وإنما أردت الاحتجاج لخلق القرآن). وهذا الكتاب هو (نظم القرآن، وسلامته من الزيادة والنقصان). والجاحظ أول من أُلِّف كتاباً في شأن (إعجاز

القرآن) ، فكأنَّ غياب لفظ (الإعجاز) في كلام أبى عثمان، هو الذي دعاه إلى تسميته (نظم القرآن) والكتاب لم يصلنا، ولنو وصلنا لكان فيه نظرٌ كثير، ولرأينا فيه لفظ (التحدي) محفوفاً أيضاً بلفظ (العجز).

ولكن اللفظ الذي غاب من كلام الجاحظ وكان دانيًا له، وُجِدَ فجأةً في كتاب ألفه أبو عبد الله محمد بن يزيد الواسطي المعتزلي. وقد توفى أبو عبد الله سنة ٣٠٦ من الهجرة، فبين وفاته ووفاة الجاحظ في سنة ٢٥٥ من الهجرة، إحدى وخمسون سنةً ليس غير، فلعله لقي الجاحظ صغيراً ورآه، أو لعله وُلِدَ في حياته ولم يره. ولكن الذي لا ريب فيه أن أبا عبد الله الواسطي المعتزلي قرأ كتب الجاحظ، ولا سيما كتابه (نظم القرآن)، وهو أول ما أُلِّفَ في معنى (إعجاز القرآن)، فكتب أبو عبد الله كتاباً سماه (إعجاز القرآن). وكانت لهذا الكتاب شهرةً مستفيضةً عند المتقدمين من أصحاب البلاغة، وكلهم اعتمد عليه فيما كتب فأنا أظن أنه هو أول من استخرج ما كان دانيًا في كتب أبى عثمان وتجاوزه لسانه، فولد لفظ (الإعجاز) و (إعجاز القرآن)، وأكثر من ذكرهما مقترنين بلفظ (التحدي)، فاستفاضت من بعده هذه الألفاظ الثلاثة وفشت وجرت بها الألسنة إلى يوم الناس هذا، والله أعلم.

أما السبب الذي من أجله قل استعمال الجاحظ لفظ (التحدي) قلة ظاهرة، فإنه حين كان يذكر (تحدي) العرب أن يأتوا بسورة من مثله، كان أكثر كلامه أن يقول: إنه دعاهم إلى (معارضته)، وطلب إليهم (أن يعارضوه)، وأشبه ذلك. ولفظ (المعارضة) و (طلب المعارضة)، كان في كلام من تقدمه وسبقه من العلماء والمتكلمين أكثر دوراناً وتفشيًا، فكان هذا اللفظ يُنازع لفظ (التحدي) منازعةً ظاهرة، لطول إلفه وقدمه، ولقلة إلف لفظ (التحدي) وحداثة ميلاده. وكل هذا دالٌّ على حداثة نشأة هذه الألفاظ الثلاثة جميعًا، وأنها قد ولدت واصطلح المتكلمون عليها في أزمنة متقاربة، وأنها لم تستقر مجتمعةً مقترنةً إلا في أواخر القرن الثالث من الهجرة. أما لفظ (المعجزة) فسيأتي الحديث عنه فيما بعد.

٦

ولفظ (التحدي) وضعه المتكلمون واصطلحوا عليه لتصوير موقف مشركي العرب من رسول الله صلى الله عليه وسلم، حين تلا عليهم القرآن، وجاهرهم بأنه كلام الله يوحي به إليه، وأنه هو وحده الدليل على أنه نبي الله أرسله إليهم. فلما أكثر عليهم

سألوه أن يأتي بآية كآيات الرسل من قبله ، فأبى الله أن يجيبهم إلى ما سألوه ، وأمره أن يقول لهم : (إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ * إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ) [سورة المدثر: ٢٤، ٢٥] لكن الذي كان يتلى عليهم ، حيرهم ، فلم يملكوا إلا أن يكذبوه في أصل دعواه أن هذا الذي يتلوه عليهم آية من آيات الله كسائر آيات الأنبياء في الدلالة على صدق نبوته ، فقال قائل منهم في حيرته يصف هذا القرآن : (إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ * إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ) فأقر بحيرته حين قال إنه (سِحْرٌ) وما دام سحراً فهو مما يقدر عليه بعض البشر ، وهم السحرة ، وإذن فهو من قول البشر ، وليس هو (كلام الله) كما يدعى هذا الساحر! فقال آخرون منهم بعد ذلك : إنه ليس كلام الله ، بل هو كلام افتراه ، فعندئذ جله (التحدي) بمثل قوله تعالى : (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) [يونس: ٣٨] ، فلما انقضت ثلاث وعشرون سنة ، ولم يأت أحد من مشركي العرب بما طُلبوا به ، صار تركهم الإتيان بسورة مثله ، (عجزاً) من مشركي العرب عن معارضة القرآن بسورة من مثله . فكان ظاهراً جداً أن يقال : إن هذا التحدي قد (أعجزهم إعجازاً) أي كشف عجزهم ، أو أوقعهم في العجز عن معارضة هذا القرآن . فاستخرج المتكلمون

لفظ (الإعجاز) للدلالة على هذا المعنى المقارن للتحدي وكان نتيجة له ، وهو عجزهم عن فعل ما تحدّاهم به!

وبَيَّنَّ جداً أن (الإعجاز) وهو ما كان من إظهار (عَجَز) مشركي العرب عن الإتيان بسورة من مثل هذا القرآن ، مَنُوطٌ كله بلفظ (التحدي) الذي وضعه المتكلمون للدلالة على ما كان من أمر مشركي العرب ، حين طُولِبُوا بالإتيان بسورة من مثله ، فانقضت السنون فلم يأتوا بشيء مما طُولِبُوا به ، فإذا لم يفعلوا ، فقد ظهر منهم (العجز). فلما جرى على ألسنتهم قولهم : (إعجاز القرآن) كان تعبيراً موجزاً عن صورة موقف مركب واضح : هو مجيء (التحدي) في القرآن يطالبهم بالإتيان بسورة من مثل هذا القرآن من ناحية ، وإبلاس المشركين وانقطاعهم عن فعل ما طُولِبُوا به في ناحية أخرى. وإذن ، فقولهم : (إعجاز القرآن) صفةٌ لهذا الموقف المركب ، ولما يؤدي إليه من أنه أظهر (عَجَز) المشركين عن فعل ما طُولِبُوا به ليس غير ، وبلا زيادةٍ أو نقصان.

ولكنَّ المتكلمين حين بلغوا هذا المبلغ ، وهم في طريقهم إلى استخراج لفظ (إعجاز القرآن) للدلالة على صفةٍ موجزة لهذا الموقف المركب ، لم يلبثوا طويلاً حتى أخرجوه عن حيّزه ، لسبب ظاهرٍ كُلُّ الظهور. فهم أهل كلامٍ وجدلٍ وتشقيقٍ ، وَيَرَوْنَ أنفسهم

أصحابٍ فحَصَّ وتَقَصَّ واستنبط وتعليل، فلا تقنعهم صفة الموقف، بل لا بُدَّ أن يطلبوا السبب الذي من أجله كان (التحدي) مُظهرًا (عجز) العرب عن فعل طُولبوا به. فنظروا في القرآن نفسه يَتَطَلَّبُونَ فيه الوجوه التي يمكن أن تكون كانت سببًا في إظهار (عجز) العرب بعد أن تحدَّاهم بما تحدَّاهم به فلما ظفروا ببعض ما ظنوا أنهم أصابوه من هذه الوجوه، التمسوا له اسما جامعًا. فكان أقرب شئ أن يسموه (إعجاز القرآن)، فنقلوا اللفظ من حيزه الأول، وجعلوه صفة للقرآن نفسه، وهو كلام الله الذي أنزله ليكون (آية) لنبيه صلى الله عليه وسلم، لا صفة للموقف المركَّب من (التحدي) وظهور (العجز).

بيد أن هذا السياق المختصر الذي ارتكبه في البيان عن تولّد هذه الألفاظ على ألسنة المتكلمين، ليس دقيقًا كل الدقة، ولا يدل على حقيقتها ولا على خطورها كل الدلالة. وسيب ذلك أني عزلتها عن منابتها عزلاً عنيماً يكاد يكون ضاراً بها وبمعانيها، لأنه أخفى كثيراً من جذورها التي قامت عليها. ولكني لم أجد من هذا العزل بُدًّا، طلباً لإيضاح ما كان قائماً في نفسي وأنا ألتمسُ المخرج من مَحْنة الشعر الجاهلي، وهو الشعر الذي نُزِّلَ القرآن على أصحابه، يطالبهم أن يتبينوا أنه (كلام الله)، وأن التاليه

عليهم رسولٌ من عند الله أمر أن يتلوه عليهم ، وأنه هو وحده آية هذا الرسول الدالة على صدق نبوته ، وأنه آية ملزمة بتصديقه كسائر آيات الأنبياء من قبله : من ناقة صالح ، إلى نار إبراهيم ، إلى عصا موسى ، إلى إبراء عيسى الأكمه والأبرص وأحيائه الموتى ، بلا فرق بين هذه الآيات كلها في الدلالة على صدق من أتى بها في دعواه أنه نبي مُرسل.

فأنا، إذن ، غير منصف ولا مُحسن ، إذا أنا تركتها في هذا العزل الذي فرضته عليها قسراً ، فواجب على أن أردّها إلى منابتها حيث نمت واستوت وأثمرت. ففي منتصف القرن الثاني للهجرة ، انبثق أولُ بثقٍ فاضٍ منه ما نعرفه اليوم باسم (علم الكلام) ، وهو بابٌ من أبواب الرأي والنظر والفحص والاستدلال، أراد أصحابه بكلامهم فيه ونظرهم : إثبات الحجج في أصول الدين ، ورد الشُّبه التي يوردها عليه الطاعنون والمخاصمون. ثم اتسع البثقُ وسال السيل على الأيام ، وتميز (المتكلمون) بآرائهم وأقوالهم، يوم ظهرت رؤوس المعتزلة كأبي الهذيل العلاف ، وأبى إسحق النظام ، وأبى عثمان الجاحظ ، ونبت معهم نوابتُ زمانهم من الزنادقة المجادلين المشاغبيين الطاعنين في النبوة وفي القرآن ، من أمثال عبد الكريم بن أبى

العوجاء ، وإسحق بن طالوت ، والنعمان بن المنذر ، و(أشباههم من الأرجاس) ، كما يقول أبو عثمان الجاحظ. احتدم الجدال والنظر والمحاورة والخلاف والرد والدفع بين هؤلاء المتكلمين أنفسهم ، وبينهم وبين المشاغبين الطاعنين في النبوة وفي القرآن ، وبينهم جميعاً وبين أهل الملل والنحل من اليهود والنصارى والبراهمة وغيرهم من الطوائف. وفي خلال هذا الجدال الساطع غباره، تولدت أربعة ألفاظٍ تتعلق بالنبوة وبالقرآن وهى : (طلب المعارضة) و (التحدي)، ثم (ترك المعارضة) و(العجز) فتلاقحت هذه الأربعة بضروبٍ مختلفة من وجوه الرأي والنظر والفحص والاستدلال ، متخاصمةً في لددٍ أحياناً ، ومتصالحةً على مَضْبُضٍ أحياناً أخرى = ثم قاصِدةٌ مشرفة على سَمْتٍ من الهدى تارة ، وجائرة طاعنة في تيهٍ من الضلال تارة أخرى. ثم لم تكد حتى بَشَّرَ مخاضُها جميعاً بدنو ولادة ثلاثة ألفاظٍ عظيمة الخطر، سيكون لها شأنٌ أي شأنٍ فيما بعد ، وهى : (الإعجاز) و(إعجاز القرآن) و(المعجزة).

كانت نشأة هذه الألفاظ التي نحن بصددِها في حَوْمَةِ جِدَالٍ مُرٍّ وخصومةٍ مُسْتَعِرَةٍ، بين دفعٍ وِردٍّ، وإثباتٍ ونفى. لم تنشأ في بقعةٍ منفردةٍ معزولة ، بل نشأت في تربةٍ خصيبة أرفغ خصبٍ وأطيبه

والبيّنة ، تنبت مئات متنوعة من الألفاظ ذوات المعاني والدلالات المتشابهة والمتنافرة ، فتداخلت واشتجرت ، وتشابكت فروعها الظاهرة ، وتعانقت جذورها الباطنة ، وأخذ هذا من هذا ، وهذا من هذا : أخذ من رائحته ، من طعمه ، من لونه ، فهي تُسقى بماء واحد ، ماء الجدال والخصومة ، والعنف والجرأة ، وطلب الغلبة والظهور على الخصم ، وجاء ثمرها متشابهًا وغير متشابه. لم تنشأ هذه الألفاظ إذن ، في عزلة كالتّي ضربتها أنا عليها ، ولا نشأت مقصورة على بحثٍ مُحَرَّرٍ ، يُرادُّ به تصوير الموقف المركّب من مجيء (التحدي) أو (طلب المعارضة) في ناحية ، و (ترك المعارضة) أو (العجز) عنها في ناحية أخرى ، بل نشأت في تربة سوف أحاول وصفها على وجه التقريب والاختصار ، وإلاّ خرج الأمر من يدي ، ودخلت أنا وأنت في مثل التيه الذي حار في أرجائه المتكلمون !

٧

دخل المتكلمون ساحة النظر والاستدلال ، ومعمّعة الجدل والخصومة من بايين كبيرين : (باب الإلهيات) و (باب النبوات). فمن باب الإلهيات أفضّوا إلى طلب البرهان على وجود الله سبحانه وتنزيهه وتوحيده ، فنظروا اضطرابًا في كل شيء ، لأن الله

ليس كمثله شئ ، وهو بائنٌ من خلقه بعلوه وعظمته، وصفاته سبحانه مباينةٌ لصفاتهم. فطلبوا حقائق صفات الخلق ، ليثبتوا بينونة الخالق سبحانه عن خلقه. ففي معترك نظرهم وجداهم وتخاصمهم ، تولدت على ألسنتهم ألفاظٌ كثيرة جداً فشّت فيهم ، وجذبتهم جذباً إلى الاختلاف في حدودها ورسومها، وزادهم الاختلاف ضراوة في ارتكاب التشقيق والتفريع، والتوجيه والتأويل، والنفي والإثبات. فلما نظروا في حقائق خلقه دارت على ألسنتهم ألفاظٌ كثيرة: العَرَض، والجوهر، والجسم، والغُلّ والوجود والعدم، والحدوث والقدم، والحركة والسكون ، والاتحاد والحلول ، والفناء والبقاء. فلما جاءوا إلى النظر في صفاته سبحانه وأسمائه، تكلموا في العلم ، والقدرة ، والإرادة، والسمع ، والبصر ، والحياة. واختلفوا في ذلك كله اختلافاً شديداً ، فنفوا وأثبتوا ، حتى انتهوا إلى صفة من صفاته سبحانه ، وهى صفة (الكلام) فعندئذ كثرت لجاجتهم في أن كلامه سبحانه عَرَضٌ أو جسم، فإن كان عَرَضاً فقد أحدثه إحداً ، وإن كان جسماً فإن الجسم لا يقوم بالجسم = شيئاً كثيراً كهذا ليس هنا مكان تفصيله. وكان محصل اختلاف أكثر جماعاتهم في النظر هو أن الله ليس بمتكلم أصلاً، وأن كلامه سبحانه ليس قائماً بذاته ، بل هو خلق يحدثه فيكون (كلاماً).

ولما بلغ نظرهم هذا المبلغ ، سهّل ذلك لطوائف منهم أمراً
أطبقوا عليه ، وإن اختلفوا في صفته ، وهو أن القرآن ، كلام الله ،
مخلوقٌ حادثٌ في محل ، ولا يوصف بأنه قديم . ونازعهم في ذلك
آخرون يقولون إن : القرآن قديمٌ ليس بمخلوق ، وهو كلام الله
سبحانه منه بدأ وإليه يعود . وكانت الفتنة التي تعلم ، والتي تولى
كبرها صناديدُ المعتزلة وجبايرتهم ، فتنة (خلق القرآن) وحمل
الناس على القول بذلك قسراً وجبريةً وبلا عقل أيضاً . ابتدأت
على يد المأمون في سنة ٢١٢ من الهجرة ، إلى أن توفى سنة ٢١٨ ،
ومرت على عهد المعتصم بالله ، وعهد الواثق بالله ، ثم أطفأها الله
بيد المتوكل على الله سنة ٢٤٢ من الهجرة . فاقراً الآن بعض قول
الجاحظ المتكلم المعتزلي الضالع مع هذه الفتنة إبان توهجها ،
لترى بعض هذه الألفاظ وسياق وضعها في خلال النظر
والاستدلال ، يقول : (والقرآن على غير ذلك جسم وصوت ، ذو
تأليف ، وذو نظمٍ وتقطيع ، وخلقٌ قائم بنفسه مستغنٍ عن غيره ،
ومسموع في الهواء ، ومرئي في الورق ، ومفصّل وموصل ، ذو
اجتماع وافتراق ، ويحتمل الزيادة والنقصان ، والفناء والبقاء ،
وكل ما احتملته الأجسام ووُصِفَتْ به الأجرام (جمع جرّم) ، وكل
ما كان كذلك فمخلوق على الحقيقة ، دون المجاز وتوسّع أهل

اللغة). وقد زاد لفظ صوت)، وهو عما تكلم فيه المتكلمون، فذكروا (الصوت) و (الحروف)، وقد تكلموا فيهما، وفي أن (الصوت) (عَرَضُ لا يحدث من جَوْهَرٍ إلا بدخول جَوْهَرٍ آخر عليه، ومحال أن يحدث إلا وهناك جسمان قد صكَّ أحدهما صاحبه، والجسم قد يحدث ولا شئ غيره = والعَرَضُ لا يقوم بنفسه ولا بد أن يقوم بغيره والأعراض من أعمال الأجسام، لا تكون إلا منها، ولا توجد إلا بها وفيها) = هذا كله لفظ أبي عثمان الجاحظ، وهو قليل من كثير، ولكنه يفي بالغرض من ملاحظة هذه الألفاظ ومواقعها، ودخولها في مباحث المتكلمين.

ولما دخل المتكلمون من (باب النبوات) يلتمسون الحجة على تثبيت صحة بعثة الرسل وعلى وجوبها، نظروا في (آيات الأنبياء) الدالة على صدق نبوتهم، ونظروا في الفرق بين الآية والحيلة، وفي الفرق بين إخبار الأنبياء بالغيوب، وإخبار الكهَّان والمنجمين بالضمير وبالأمر المستور وبيعض ما يكون. ونظروا في شرط (الآية) حتى تكون مُلزمة للناس في تصديق مدَّعي النبوة والتسليم له بأنه نبي لله، فرأوا أن مدار (الآية) على (عجز) الخليفة، فلا تكون آيةً حتى تُعجزهم.

فلما أحكموا الاستدلال والنَّظَرَ في هذا الشرط ، وقلَّبوا له الوجوه حتى فرغوا = جئوا إلى القرآن ، وهو كلام الله ، وآية نبيه صلى الله عليه وسلم على صدق نبوته ، فرأوا أن الله سبحانه قد أبى على المشركين أن يُجيبهم إلى ما طالبوا به من الإتيان بآيةٍ أخرى كآيات الأنبياء من قبله ، وما هو إلا (القرآن، كلامُ الله) أوحى إليه ليكون آيةً دالة على صدق نبوته صلى الله عليه وسلم. وتورَّط المتكلمون في الحيرة ، فقد خرجوا من (باب الإلهيات) ودخلوا (باب النبوات)، ومعهم اليقين بأن مدار (آية) النبي على (عجز) الخليفة، وأنها لا تكون آية حتى تعجزهم، فوجدوا هذه (الآية) ، وهى القرآن كلام الله ، مخالفة كل المخالفة ، ومن كل وجه، لجميع آيات الأنبياء من قبله صلى الله عليه وسلم ، في قرب تسليم المشاهد لها ، والسامع بها بأنها خارجة عن طوقه وعن طَوْق جميع الخلائق ، حتى يشهدوا على أنفسهم بالعجز عن فعلها، كآيات موسى وعصاه ، وكآية عيسى في إحياء الموتى، مما لا تقدر عليه الخليفة ، أو تطمع في فعل مثله. فكيف يكون (كلامٌ عربي مبين) آيةً على شرطهم هذا في (العجز) الذي تسلَّم به بديهة المعاينة ، وبديهة العقل، وبديهة قُدرة الخليفة ؟ كيف وفى سرَّ أقوالهم وطوايا نظرهم في صفات الله سبحانه أنه ليس بتكلم

أصلاً، وأن كلامه ليس قائماً بذاته ، بل هو خلق يُحدِّثُهُ فيكون كلاماً ؟ وهذا القرآن كلامٌ عربيٌّ مخلوقٌ أحدثه الله سبحانه وتعالى ، جاء بلسان العرب ، يسمعه قومٌ عربٌ أصحابُ لُسنٍ وقصاحيةٍ وبلاغةٍ ، وأصحابُ خطابةٍ وشعرٍ ، وأهلُ بيانٍ باللفظ القريب عن المعنى البعيد ، وبالكلمة السهلة الظاهرة ، عن المعاني المتوعِّرة البعيدة الغور ، فكيف يكون (آية) ظاهرة مُلزِمة بظهور (عجز الخليفة) ، وهذه العربُ تسمع القرآن العربي يُتلى عليها ، فلا تنكر عربيته ، ولكن يُطبق جمهورهم الأعظم على تكذيبه وإنكار نبوته ثلاثة عشر عاماً ؟ هو آيةٌ ، ولم يملكوا إلا التسليم ، فأين (عجزُ الخليفة) ؟ كالذي يجدونه في نظرهم واستدلالهم في شأن ناقة صالح ، ونار إبراهيم ، وإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى ، وكلها آيات ، مجرد عيانها أو سماعها يشهد على جميع الخلائق بالعجز ، صدَّق مشاهدوها أو سامعوها نبوة صاحبها أو كذبوه ؟ بل أكبرُ من ذلك : أن يشهد عقل هؤلاء المتكلمين ونظرُهم = وهم وحدهم أهلُ العقل والنظر ! = على جميع الخلائق بالعجز !

وحاصوا حيصةً في هذه المَعْمَعة يطلبون المخرج ! فقد سلَّموا بأن القرآن (آية) فأين تمام شرطهم في الآية ، وهتوا (عجز الخليفة) ؟ فعمدوا إلى القرآن نفسه يلتمسون فيه تمام شرطهم في

هذه (الآية) التي لا تشبه شيئاً من آيات الرسل من قبله. فوجدوا أن الله تعالى قد طالب العرب المكذّبين بنبيه في آيات من هذا القرآن : بأن يأتوا بسورةٍ من مثل هذا القرآن ، ثم لم يجدوا أحداً من مشركي العرب قد فعل ذلك أو حاوله ، لا في قرآن ، ولا في حديث ، ولا في خبر من الأخبار. وطاروا بذلك فرحاً، وطارت عقولهم ، والتمسوا بالسنّتهم العبارة عن هذا الموقف المركب. فإذا كان ما في القرآن (مطالبةً) فما خلّو القرآن والحديث والأخبار عن رجوع هذه المطالبة ؟ فلم يأسوا، وأعانتهم عقولهم وألسنتهم فسموا الأول (طلب المعارضة) وسموا الآخر (ترك المعارضة). وهذا تصوير للموقف المركب لا أكثر، ولكنهم لا يريدون صفة هذا الموقف المحدد، بل يريدون أن يدخلوا به إلى معمعة غير محددة من النظر والاستدلال والمحاورة في (آيات الأنبياء) التي لا تكون إحداهن آية حتى تُعجز الخليفة. فحاصوا حيصةً أخرى يُريغون منفذاً إلى المعمعة ، وظفروا بما أراغوا، فسموا (طلب المعارضة) (تحدّياً) ، وسموا (ترك المعارضة)، (عجزاً)، وخرجوا بهما جميعاً من صفة الموقف المركب، إلى صفة القرآن نفسه وهو الآية. ولم يكادوا حتى اختلط الأمر عليهم اختلاطاً شديداً.

والبرهان على أن هذا الذي قلته آنفاً كان طريقةً فحَصَّتْهم
ونظرهم ، ما قاله خطيبُ المعتزلة وصاحبُ صناديدهم ، أبو
عثمان الجاحظ، فإنه يقول في كتاب الحيوان (٤ : ٨٩): (ومثل ذلك
ما رَفَعَ من أوْهام العرب ، وصرف نفوسهم عن المعارضة للقرآن
بعد أن تحدَّاهم الرسول بنظمه، ولذلك لم نجد أحداً طمع فيه، ولو
طمع فيه لتكلَّفه ، ولو تكلف بعضهم ذلك فجاء بأمر فيه أدنى
شبهةٍ، لعظمت القصة على الأعراب وأشبه الأعراب، والنساء
وأشبه النساء ، ولألقى ذلك للمسلمين عملاً ، ولطلبوا المحاكمة
والتراضى ببعض العرب ، ولكثرة القيل والقال). وهذا نص مبين
جداً.

٨

ما كاد المتكلمون ، ومعهم القرآن ، يدخلون معمعة النظر
والاستدلال بهذا (التحدي) كما سمَّوه، وبما توهموه ضامناً لتمام
شرطهم في آيات الأنبياء وهو (العجز)، حتى وجدوا نظرهم لا
يكاد يلتئم . فسنة هؤلاء المتكلمين في النظر والفحص ، كانت
توجب عليهم أن ينظروا نظراً فاحصاً في حقيقة هذا (العجز)
الذي جعلوه شرطاً في الآية، وهو (عجز الخليفة). وأنا لم أزل في

ربية من أمر هؤلاء المتكلمين منذ خالطت كلامهم، وأنا أشدُّ ارتياباً في الذين وضعوا هذا الشرطَ منهم. أنظروا في حقيقة معنى (العجز) نظراً فاحصاً، فأروا ما فيه من الغموض والإبهام والفساد، ثم حملهم الهوى أن يتكاثروا بينهم ذلك المغمز الخفى في حقيقته = أم هم كانوا أسلمَ حالاً وطويةً، إذ غمرهم الجدل بهذا الشرط المُبهم الغامض، فأغفلتهم نشوة الظفر به عن ضرواتهم في الفحص والنظر، وعن غموضه وإبهامه وفساده، فتجاوزوه ومروا عليه مرور المطمئن الذي لا يرتاب في صحته وسلامته؟ وأي ذلك كان، فإن الذي أوقعهم فيه اللفظ المبهم، وهو (العجز)، من الحيرة والتخبط سوف يظهر ظهوراً بيناً بعد قليل.

وأنا حين تورطت قديماً في جدل هؤلاء المتكلمين، حُرْتُ حيرةً مشتتةً، رمانى في تيهها هذا الشرط الغريب، وتخبَّطت معهم تخبطاً شديداً، فما نَجوتُ إلا بعد أن هداني اللهُ برحمته إلى مُعاودة الفحص عن لفظ (العجز) فحصاً أرجو أن يكون قد قادني إلى مَحَجَّة الصواب بحمد الله. وذلك أنى وجدتُ أن آيات الرسل جميعاً، حاشى القرآن، (العجز) فيها قريبٌ سهل المأخذ، وسهل أيضاً أن يقبله العقل قبولاً مغرباً بالركون إلى صحته والاعتناع به. أما (العجز) في شأن القرآن، فإني وجدت الأمر

مختلفاً أبين الاختلاف، فلم أستطع أن أقبله قبولاً سهلاً، ولا أن أركن إليه وأطمئن أطمئنان اليقين الجازم. فحملني القلق الذي لا يفارقني على إعادة النظر في هذا الشرط وفي لفظ (العجز) خاصة، مع ما في ذلك من المخاطرة بمخالفة جمهور علمه الأمة الذين أخذوا هذا اللفظ وهذا الشرط عن هؤلاء المتكلمين، وأمره إمراراً، وبنوا عليه أبواباً من العلم واسعة، تشهد جميعها بأنهم سلموا تسليماً يقطع بأنهم أطبقوا عليه، ولم يختلف أحد في صوابه.

وبعد الخيرة المشتتة، انتهيت إلى أن آيات الرسل جميعاً، حاشى القرآن العظيم، (العجز) فيها ليس (عجزاً) عن فعلٍ طُوبت الخلائق بفعله أو بالإتيان بمثله، فظهر عجزهم عنه وقد حاولوا فعله = بل هو تسليم مُبتدأ تسليماً محضاً بأن النبي رأوه أو سمعوا به، داخل دخولاً مبيناً في قدرة الخلاق العظيم وحده، وخارج خروجاً مبيناً عن قدرة جميع الخلائق التي خلقها سبحانه، ومعنى ذلك أن هذا الذي سَمَّوه (عجزاً) من الخلائق، ليس على الحقيقة (عجزاً) منهم عن شيء طُوبوا بفعله، بل (الآية)، التي يرونها أو يسمعون بها، هي فعلٌ ممتنع أصلاً على جميع الخلائق غير داخل في قدرتها، كإحياء الموتى، وكدخول رجل النار

تباشرها وتبشره ثم لا يحترق ، فهذا أو هذا أمر شاذٍ يغمر بدائه الخلائق كلها، عياناً وسماعاً ، بأنه فعل ممتنع أصلاً على جميعهم وعلى مدعى النبوة منهم ، لأنه بديهية ، من أفعال الله التي استأثر بها الخلاق العظيم دون خلائقه وعباده ، من الجن والإنس والملائكة المقربين = وبأن هذه (الآية) تنزيلٌ من الله وحده ، أنزلها على من يشاء منهم، حين يشاء، حيث يشاء ولا قبيل لأحدٍ من خلقه على فعلها أو الإتيان بمثلها.

وإذن، فالأمر ليس (عَجْزاً) من الخلائق عن فعل طُولبوا بمثله فمعجزوا ، أو يتوهمون توهماً أنهم لو أرادوه لمعجزوا عنه = بل هو (إِبلاسٌ) محضٌ من جميع الخلائق ، ودَهَشٌ وسكوتٌ ووجوم وإطراق أحدثته مباغتة (الآية) عند المعاينة ، ثم تسليم قاطعٌ تستيقنه النفوس ، بأنها فعل ممتنع أصلاً على هذا النبي وعلى جميعهم ، بلا ريب يخامرها في ذلك. وإذن فالشرط الذي وضعه المتكلمون ، وهو (مدار الآية على عجز الخليفة)، شرطٌ فاسد المعنى، غيرُ دالٍ على حقيقة (الآية) = والشرطُ الصحيح هو أن نقول: (مدار الآية على إبلاس الخليفة) ، ليس غير. وقد بينتُ معنى (العَجْز) في اللغة في أول كلامي (ص ١٥ وما بعدها)، وذلك أن يريد الرجل أن يفعل فعلاً، فيحاوله ، ثم لا يجد في نفسه

قدرة على إتمامه أو إدراكه، فهو دلالة على نتيجة معالجة لفعل لم يجد في نفسه قدرةً على تمامه وتحقيقه. وأما (الإبلاس) في اللغة فحالة طارئة تعتري النفس من أمرٍ يأتي بغتة، أو يراه المرء بغتةً، فيفجأه عنده حيرة ورهبة ودهش وخوف، فتقطع لها حركة حسه، فيسكتُ يغشاه وجومٌ وإطراق. فالعجزُ ضعفٌ يذكركه المرء من نفسه عن بذل جهد ومعالجة، والإبلاس إحساسٌ غامر بالحيرة والدهش والانقطاع، تمنع المرء عن كل جهدٍ ومعالجة فهذا فرق ما بين (العجز) و (الإبلاس).

وبين أن (الإبلاس) عند رؤية ميتٍ يقوم قائماً يمشى ويتكلم، ويحرك رأسه ويديه، وينظر في وجه الناس بعينين تتلألآن، أو رؤية قضيبٍ من شجر يُلقى على الأرض فإذاً هو حية تسعى، وتفغرُ فاهما تلقف ما أمامها فتبتلعهُ ابتلاعاً = هو أول ما يأخذ الزائري والمشاهد بغتةً ثم لا يفلقه، بل يقطعه، باليأس قطعاً عن توهم أحدٍ من الخلق يتوهم محاولة الإتيان بفعل كالذي يراه، بل إن لفظ (المحاولة) نفسه لا يكاد يخطر له ببال: أليس ذلك كذلك؟ وإذن، فإن (الإبلاس) هو أصدق اللفظين دلالةً على ما يأخذ المشاهد عند معاينة (الآية)، بغتةً، وهو أحق اللفظين بأن يكون عليه مدار (الآية)، وهو أخرى اللفظين بأن يدخل في شرط

(الآية) فيقال: (مدار الآية على إِبلاس الخليفة) = وباطلُ أن يقال:
(مدار الآية على عجز الخليفة). وهذا كله بَيِّنُ كُلِّ البيان ، ولا
يمكن الخلاف عليه إن شاء الله.

٩

هكذا كان ينبغي أن يكون نظر المتكلمين الأوائل في لفظ
(العَجَز) فحَصًّا عن سلامة الشرط الذي وضعوه ، فإن يكونوا قد
أغفلوا ذلك سهوًا في نشوة الفرح بشرطهم هذا ، فهو عجبٌ ،
ولكنه سهوٌ غير ممكن... وبيانُ ذلك أن هذا الشرط الغامض
المبهم، إذا صح أنه قد مرَّ معهم مرورًا سهلاً في جميع آيات الرسل،
حتى أغراهم بالاطمئنان إلى إحكامه وسلامته ، فإنهم حين جاءوا
إلى القرآن العظيم ، وجدوه (آية) لا تشبه شيئًا من آيات الرسل
منذ آدم عليه السلام ، حتى جاء آية فريدة في تاريخ البشر ، أوتيتها
نبيُّنا صلى الله عليه وسلم دون سائر الرسل ، فوجدوا شرطهم مع
هذه الآية ، لا يطاوعهم كما طاوعهم من قبل. فحاروا حيرة
مضنيةً، وقلَّبوا له الوجوه يلتمسون المخرج ، ومعهم شرطهم سالمًا
كل السلامة ، مُحَكَّمًا كل الإحكام. وهذا التقلب ذالٌّ على أنهم
أدركوا ما فيه من غموضٍ وإبهامٍ وفسادٍ خفي، فأثروا أن يتغاضوا

عن هذا كله ، وذهبوا ينظرون : كيف كان مجيء (العجز) مع هذه الآية الفريدة في تاريخ البشر، وفي تاريخ الأنبياء والرسل ؟ وهذا دليل قاطع على أن الأمر غير ممكن أن يكون كان سهواً .

فإذا كان ذلك كذلك ، فليت شعري ، مَنْ هؤلاء الذين وضعوا هذا الشرط ، ثم أدركوا فسادَه ، ثم تكاثروا ذلك بينهم ، وذهبوا كل مذهب ينظرون كيف كان مجيء هذا (العجز) في هذه الآية الفريدة ، وهى القرآن العظيم ؟

أما الصحابة والتابعون ، فيقين حاسم ، لم يتكلموا ولم ينظروا في شئ من ذلك ولا في شئ من مثله حتى إذا ما انقضت المئة الأولى من الهجرة وانتصفت المئة الثانية أو كادت، جاء واصل بن عطاء الغزال البليغ الألف ، فاعتزل وشق (الكلام) للمتكلمين من بعده، وصار هو رأس (المعتزلة) ، ومبدأ طريقهم. وقد ولد واصل سنة ٨٠ من الهجرة ، ثم ذهب في سنة ١٣١ هـ ، وكان حياته مشغولاً بالكلام في القدر والصفات، وأفعال العباد والمنزلة بين المنزلتين ، وهى أصل عمل المتكلمين ، ولا يعرف له قول في آيات الرسل ، ولا في القرآن العظيم. ومضى أمر واصل وأصحابه على ذلك حتى نبغ أبو الهذيل العلاف البصري ، المولود بعد وفاة واصل في نحو سنة ١٣٥ من الهجرة ، حتى توفى سنة ٢٣٥ هـ ، عن

مئة سنة، وامرأته أخت امرأة واصل ، وهما ابنتا عمرو بن عبيد. وكان أبو الهذيل قد أخذ الاعتزال عن بعض أصحاب سلفه واصل ، حتى استوى له الطريق ، فجعل يقرر للمعتزلة طريق الاعتزال ، فمهد الطريق ، وناظر عليها ، حتى غدا الرئيس المقدم على طائفته بالبصرة. وكان في زمانه رجلان من المعتزلة ، ولدا بالبصرة في صدر حياته ، أولهما : ابن أخته أبو إسحق إبراهيم بن سيار النظام ، ولد سنة ١٦٠ تقريباً وتوفى سنة ٢٣١ = والآخر : أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ولد سنة ١٥٠ ، وتوفى سنة ٢٥٥.

أما أقدم هؤلاء الثلاثة ميلاداً ، وهو أبو الهذيل العلاف ، فشغل بواصل وأقوال سلفه واصل ، يقرر مذهبه وينظر عليه ، ويوافق واصلًا ويخالفه ، حتى صار شيخ المعتزلة ورئيسها ، وشق لمن بعده من المتكلمين طريقاً واسع الأرجاء. بيد أنا لا نكاد نجد له قولاً يذكر في آيات الرسل ولا في القرآن ، إلا مسألة في (باب الإلهيات) ، وهى مسألة (كلام الله) ، فإنه كان يقول إن بعضه في محل ، وهو (كُنْ) وبعضه في لا محل ، كالأمر والنهى والخبر والاستخبار ، إلى آخر ما يكون من ذلك.

ثم دخل على أبى الهذيل ابن أخته ، وتلميذه ، وصاحبه أبو إسحق النظام ، فأخذ عنه أخذاً كثيراً ، حتى إذا ما استوى واشتد

ساعده وجمع عِلْم أبي الهذيل في صدره ، انفتل عنه وانفرد بعلمه
انفراداً كاد يُخْمِل ذكر خاله أبي الهذيل العلاف ، وهو حَيٌّ معه
بالبصرة بعدُ واجه خاله كِفاحاً ، وأخذ يناظر شيخه وخاله في
مسائل (الكلام) ، حتى يجعل صدر شيخه ضيقاً حرجاً ، فيقوم من
مجلسه منصرفاً عن تلميذه وصاحبه. يقول أبو عثمان الجاحظ في
كتاب الحيوان (٣ : ٦٠) : (وقيل لأبي الهذيل : إنك إذا راوغت
وتَعَالَلْتَ - وأنت تكلم النظام - وقُمْتَ ، فأحسن حالاتك أن
يشك الناس فيك وفيه ! فقال أبو الهذيل : خمسون شكاً خير من
يقين واحدٍ) أراد بالشك : الشكُّ في جنونهما واختلاط عقلمهما .
هذا تاريخ لا بد منه .

وإذا كنا لم نجد لواصل الغزال ، ولا لسلفه أبي الهذيل
العلاف = وهما كبشا الاعتزال اللذان أسسا مذهب الكلام
وناطحا عنه = قولاً يُذكر في آيات الرسل ولا في آية القرآن ،
فالأمر إذن بَيِّن . ويزيده بياناً أن أبا إسحق النظام ، الذي كان يلقي
شيخه وخاله كِفاحاً ، يناظره حتى يُكْثِر عليه ويُخْرِجه ، فلا يملك
إلا المراوغة والتعلل بأسباب ملفقة حتى يفارق المجلس = وأن أبا
عثمان الجاحظ ، خِذْن النظام ورقيقه في صحبة الشيخ ، وهو الذي
ينوه بذكر أبي الهذيل ، وإن كان أحياناً يتعقبه بالرد على بعض

آرائه في كتبه ، ويتلعب به أحياناً أخرى متندراً ببخله = كلا الرجلين لم يُذكر له في هذا الباب شيئاً. إذن ، فالذي وضع هذا الشرط في الآية ناس غير واصل وأبى الهدّيل وغير أصحابهما الأول.

فإذا كان ثالث الثلاثة أبو عثمان الجاحظ هو أول من ذكر الشرط صريحاً في كتبه، ولا سيما كتاب (حُجَج النبوة) ، وكان هو وأبو إسحق النظام جميعاً ، هما اللذين التمسّا المخرج من إبهامه وغموضه ، وذهبا معاً ينظران كيف كان مجيء (العجز) مع هذه الآية الفريدة في تاريخ الأنبياء والرسل = فالأمر البين الذي لا يستره إبهام ولا غموض ، هو أنهما هما اللذان كانا أول من وضع هذا الشرط: (مدارُ الآية على عجز الخليفة) ، ثم تداولاه معاً ، حتى صاغاه هذه الصياغة ، ثم مرّاً به معاً على آيات الرسل ، فلما جاء إلى القرآن العظيم ، آية نبينا صلى الله عليه وسلم ، وقفنا معاً على غموضه وإبهامه وفساده الخفى ، فضنّا بوليدهما الغضّ الإهاب، فتكاتما هذا المغمز الخفى في تكوينه ، وانطلقا يلتمسان المخارج بكل حيلة ، ومعهما شرطهما الحديث الميلاد، يحوطانه حتى يسلم وينمو ويستفحل. وقد كان! ومشية الله غالبية على كل ما كان وما يكون.

منذ شرعت أكتب وأنا في حيرة محفوفة بالهيبه ، وكنت لا أدري من أين أبدأ ، ولكنى بدأتُ حتى انتهيتُ إلى هذا المقطع من الكلام. والآن ، كان من حيرتى أنى لا أستطيع أن أكتتم أن ما هتكتُ عته الحجاب من أن أبا إسحق النظم وأبا عثمان الجاحظ، هما وحدهما اللذان تعاونوا على صياغة هذا الشرط : (مدار الآية على عجز الخليفة) = لم يجر على هذا الوجه السهل المرتب من النظر في آيات الرسل أولاً ، ثم في القرآن من بعد. بل الأمر أعقد من ذلك ، واستنباط ما تضمنه القلوب ، وما غيبه الفناء البعيد في أكفانه ، أمرٌ بليغ الوعورة والعسر. ولذلك أقول الآن إنه غير ممكن أن يكون الأمر بينهما كان جارياً على هذا الوجه الذي أردت به التيسير. فأبو إسحق وأبو عثمان رجلان من المسلمين، كانا يقرآن القرآن ويحفظانه منذ النشأة الأولى ، وهما يعلمان علماً يقيناً، تلقينا وتوارثاً وتدوياً ، أن القرآن آية نبينا صلى الله عليه وسلم. حتى إذا ما بلغا من العلم مبلغاً أذهما إلى أن ينظرا نظر المتكلمين في باب تثبيت آيات النبوة ، فالقرآن بلا ريب بأعينهما وفى صدورهما ، هو الآية التي ختمت بها آيات

النبوة ، ومحال أن يطبقا أن يعزلاه عن نظرهما عزلاً حتى يفرغا من النظر في آيات سائر الأنبياء ، ثم يعودا بعد إلى صياغة هذا الشرط ، بل لعل الأمر جرى على عكس ذلك .

وقريب جداً أن يكون هذان الرجلان المسلمان ، لم يزالا يسمعان ويقرآن في كتاب الله ، وفي مواضع مختلفة منه قوله سبحانه (قل فأتوا بسورة مثله) وما في معناها من الآيات ، ويعلمان أيضاً علم يقين أن مشركي العرب لم يستجيبوا لما طُلبوا به = فيكون أسرع شيء إلى أوهامهما بداهة : أن العرب لم يتركوا الاستجابة إلا وقد وجدوا في أنفسهم (عجزاً) عما طُلبوا به . وذلك أن القرآن كلام عربي ، والعربُ وغير العرب قادرون أبداً على معارضة كلامٍ بكلام مثله . فلو لم يجدوا في أنفسهم ضرباً من (العجز) عن الإتيان بمثله ، لما تركوا الاستجابة لما طُلبوا به ، ویتتهى الأمر بينهم وبين هذا النبي ، إلى أن يتراضوا بينهم وبينه على حكم يتحاكمون إليه في تفضيل كلام على كلام ، على ما ألفوه في حياتهم وأسواقهم من المناقرة والمفاخرة والتحكيم بين الشعراء أيهم أشعر كالذي كان بين امرئ القيس وعلقمة وأشباههما من الشعراء . فإذ لم يستجيبوا لذلك وآثروا القتال والدم ، فهم إذن لم يتركوا مالا مؤونة فيه على أنفسهم وأرواحهم ، ويرتكبوا ما فيه المؤونة كل المؤونة ، إلا لهذا (العجز) الذي

يجدون في سر أنفسهم.

وقريب جدًا أيضًا أن يكونا في خلال حوارهما هذا كانا ينظران بعين إلى آيات من آيات الأنبياء ، (عجز) البشر عن الإتيان بمثلها واضح كل الوضوح ، كآية عيسى عليه السلام في إحياء الموتى ، وآية موسى في إلقاء العصا ، وآية إبراهيم في مباشرة النار الموقدة والخروج منها سليماً لم يحترق هو ولا ثيابه. فكان هذا النظر بعين ، مقتنعاً ورضى عجل بهما إلى صياغة شرطهما في آية كل نبي (مدار الآية على عجز الخليقة) ، وثبت عندهما لفظ (العجز) ثبوتاً لا يكاد ينزعه من مكانه شيء. فكان شرطاً مرضياً كل الرضى.

ولكن سرعان ما انتبه الصاحبان ، أبو عثمان وأبو إسحق ، إلى أن (العجز) في مثل آية (إحياء الموتى) ، أمر قائم في نفوس الخلائق جميعاً = أما (العجز) في آية القرآن ، عن معارضة كلام بكلام ، فليس أمراً قائماً في أنفس الخلائق ، بل القائم في أنفسهما هو القدرة على هذه المعارضة. فكيف ، إذن ، وقد ثبت عندهما ثبوتاً لا شك فيه: أن العرب قد تركوا الاستجابة ، وأنهم لم يتركوها إلا عن (عجز) وجدوه في ضمير أنفسهم ؟ وعندئذٍ أسرعاً أسرعاً يلتزمان تفسيراً لهذا (العجز) الواقع الذي لا شك فيه.

أما أبو إسحق النظام ، فكان امرئاً ذكياً ساطع الذكاء ،
 صحب خاله أبا الهذيل العلاف ، فأخذ عنه الجدل واللدد والمناظرة
 وغلبة الخصوم ، وصحب أئمة العلم دهرًا ، وصحب الخليل وغيره
 من العلماء باللغة وبالشعر ، وصحب فحول الشعراء ، فاكسب
 طرفاً دانيًا من الفصاحة والبيان. ولكنه كان أيضاً ذكياً متهوراً يطير
 مع الخاطر الأول: ثم يناظر عليه ويجادل فيه بلدد كثير الحيلة،
 وبذلكه متوهج، وبثقة بعقله تخرجه من حد العقل. وقد وصفه
 صاحبه وخدينه أبو عثمان الجاحظ في كتاب الحيوان، (٧: ١٦٦)
 أجود صفة فقال: (كان أبو إسحق إذا ذكر الوهم ، لم يشك في
 جنونه واختلاط عقله). [الوهم] : اصطلاح يراد به : قوة من
 قوى الجسم ، تحكم بها الشاة على أن الذئب مهروب منه ، وأن
 الولد معطوف عليه. وهذه القوة حاكمة على جميع قوى الجسم.
 وتستخدم هذه القوة جميع قوى الجسم استخدام العقل جميع قوى
 العقل].

وثقة من أبى عثمان وأبى إسحق بذكائهما ، التمساً
 تصحيح شرطها الوليد في آيات الرسل ، وتكاثراً بينهما مغمّره
 وفساده ، فراما مرأماً بعيداً : أن يجعلاه منطبقاً أيضاً على الآية

الفريدة في تاريخ الرسل، بل في تاريخ البشر، وهى القرآن العظيم . وللمتكلمين، والفلاسفة أيضاً، جرأة يَغْلَوْنَ فيها حتى ترميهم في الطيش ، ثم لهم ذكاء ثاقب كشهاب ينقضُّ ، ملدأموا في باب الحيل والمخارج والمداخل، وجدال الخصوم ، وشهوة الغلبة على الأقران = ولكنهم إذا واجهوا بعض الحقائق الكبرى كِفَاحًا، خبا هذا الذكاء المتوقد وانطفأ، وعندئذٍ يلجأون إلى الحيلة ، فيثيرون غباراً ظاهراً، يكتُم ما تحته من مغالطات باطنة، ثم بالمكر والحيلة وبالمفاجأة المستغربة ينقلونك من باب الحقائق ، ليدخلوا بك باب المراوغة المتشابكة طُرُقَه ودُرُوبُه . وهكذا كان شأن أبى إسحق وأبى عثمان : جلاء برأى لا يكاد يخطر ببال عاقلٍ = إلا ببال من اشتعل عَقْلُه اشتعالاً ساطعاً ثم انطفأ فجأة ، ولكن بقى منه في الأعين الموهج لا غير، أما العقل المطروح على الثرى رماداً هامداً ، فقد عميت عنه العيون .

١١

لا أدرى كيف ضلَّ الرجلان في تيه الحوار والمناظرة، حتى اهتديا، بعد الإرهاق والتعب والهُمُود والهُمُود ، إلى قولٍ مذهلٍ للعقول

سمياه : (الصَّرْفَة)، لتكون هذه الصَّرْفَة في شأن القرآن مُصَحَّحة
أيضًا لشرطهما الذي أحدثاه ، وهو : (مدارُ الآية على عجز
الخليقة) ، ولتخفى أيضًا ما في هذا الشرط من المغمز المفضى إلى
فساده واضطرابه. وهذه (الصَّرْفَة)، كما وصفها أبو عثمان الجاحظ
نفسه آنفًا، هي أن الله تعالى (رفع من أوهام العرب ، وصرف
نفوسهم عن المعارضة للقرآن، بعد أن تحداهم الرسول بنظمه...)،
وكذلك قال مواضع آخر من كتبه ، ولم يزد على هذا.

أما بيان مقالة أبي عثمان وأبى إسحق في (الصَّرْفَة) فهو
كما ترى : الشأن في آيات الأنبياء جميعًا هو أن (العجز) عنها قائم
في أنفس الخلائق ، وذلك أن الله سبحانه حين فطر الخلائق
سلبهم القدرة على أشياء استأثر بها سبحانه دونهم، لأنها داخلية
دخولاً مبيناً في صفاته سبحانه، فإذا جاءت الخلائق (آية) هي
حدوث شيء قد سلبوا القدرة عليه فطرة ، وجدوا (العجز) عنه في
أنفسهم وجداناً ظاهراً مغروراً في طباع الإنس والجن والملائكة
المقربين.

والقرآن بلا ريب ، هو لبنينا صلى الله عليه وسلم (آية)،
دالة على صدق نبوته كآيات سائر الأنبياء. فإذا كان ذلك كذلك،
فشرط الآية، وهو (عجز الخليقة)، يستوجب، كما استوجب في

سائر آيات الأنبياء ، أن تتلقى الخلائق القرآن بعجز تجده قائماً في أنفسها مغروراً فيها ، لأنهم قد سلبوا القدرة على مثله فطرة فطروا عليها. هذا شرط لازم لآية كل نبي ، بيد أن هذا (العجز) الذي يتطلبه شرط الآية هو في شأن القرآن غير مستبين ولا ظاهر، بل هو أمر مُشْكِل. فالقرآن كلام عربي النظم والتأليف ، وقدرة العرب على نظم كلام وتأليفه بلسانها ، بل قدرة سائر الخلائق على نظم كلام وتأليفه بألسنتها ، أمرٌ مقطوع بأنه قائم في أنفسها قياماً ثابتاً مغروراً فيها ، فطرة فطروا عليها. وإذن فقد صار محالاً أن تكون الخلائق مما تتلقى هذا القرآن العربي النظم والتأليف ، بعجز قائم في أنفسها مغرور فيها ، يقطعها قطعاً عن نظم كلام وتأليفه مع تمام قدرتها فطرة على نظم الكلام وتأليفه.

ومع هذا الحال الذي لا شك في استحالة عقله ، فإن (العجز) قد وقع ، مع ظهور هذه الاستحالة ظهوراً بيناً لا محيص منه. فالعرب قد طُولُوا في آيات من القرآن بأن يأتوا بسورة من مثله ، بل أكبر من ذلك مجيء البيان القاطع للعرب وغير العرب من الإنس والجن بأنهم لا يستطيعون البتة أن يأتوا بمثل هذا القرآن ، فقليل لهم: (قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً)

[الإسراء ٨٨]

وقد كان الأمر كما قد قيل لهذه الخلائق ! لم ينتصب أحدٌ من العرب لمعارضة هذا القرآن بسورة من مثله ، وانقطعت الخلائق كُلُّها انقطاعاً لا ريب فيه عن الإتيان بمثل هذا القرآن. فهذا الانقطاع المستبين هو (العجز) كل العجز عن نظم كلامٍ وتأليفه يضارعُ نظمَ القرآن ، مع أن قدرة الخلائق على نظم كلامٍ وتأليفه بألسنتهم باقية على عهدهم بها لم تتغير ولم تتبدل. فهذا حادثٌ واقعٌ غير خفي، وإن كان محالاً في العقل.

وإذن ، فهذا المحال الذي صار واقعاً لا شك في وقوعه، لا يتأتى تفسيره ، وإخراجه من الاستحالة ، إلا على وجه واحد: أن يكون قد حدث في أنفس الخلائق (عجز) مستأنفٌ مبتدعٌ، جاء مقارناً لتنزيل القرآن ، هو نفسه (آية) أخرى دالة على صدق هذا النبي الذي أوحى إليه هذا القرآن، صلى الله عليه وسلم. ومعنى ذلك أن الله تعالى حين نزل القرآن على نبيه منذ أول يوم ، كان قد أحدث في أنفس الخلائق (عجزاً) عن الإتيان بمثله ، فتلقت الخلائق (آية القرآن) بعجزٍ قائمٍ في أنفسها عن الإتيان بمثله. ويبيِّن كل البيان أن (العجز) الذي هو شرطٌ في آية كل نبي صار الآن (عجزان) : عجزٌ قديمٌ مغرورٌ في أنفس الخلائق عند الفطرة الأولى لأنهم سلبوا القدرة سلباً جازماً عن أفعال قد استأثر الله

بها وحده سبحانه دون خلأقه جميعاً، فتأتى آيات الأنبياء جميعاً من هذا الباب ، فتلقاها الخلائق بالتسليم والعجز .

هذا هو (العجز الأول)، ثم (عجز) أحدثه الله إحدائاً عند تنزيل آية نبينا صلى الله عليه وسلم ، وهى القرآن، وهو (عجز) مستحدث فجأة فى أنفس الخلائق، وهو عجز لا يسلبها القدرة على نظم الكلام وتأليفه بته ، فذلك إلحاق لها بالبهايم والعجاوات ، بل هو عجز يسلبها القدرة على نظم الكلام وتأليفه فى حالة واحدة ليس غير ، هى الحالة التى تُريغ فيها الخلائق ، أو تُسَوِّل لها أنفسها، معارضة القرآن بنظم وتأليف يُشابهه أو يدانيه ، فعندئذ يقطعها (العجز) قطعاً ميبناً على إتيان ما أراغته من الإتيان بمثل هذا القرآن، ثم هى بعد ذلك مطلقة قدرتها إطلاقاً على ما شاءت من نظم الكلام وتأليفه ، بلا حرج عليها فى ذلك! وهذا هو (العجز الثانى).

على هذا الوجه زال الإشكال ، فيما توهم أبو إسحق النظام وأبو عثمان الجاحظ، وسلم لهما الشرط الذى وضعاه وهو : (مدار الآية على عجز الخليفة) ، وهذا (العجز الثانى) الذى ضُرب على الخلائق كلها عند تنزيل القرآن سيطر مستقراً فى أنفس الخلائق حتى يرث الله الأرض ومن عليها بلا ريب فى

ذلك. وقد استحدثنا لهذا (العجز) اسما، وهو (الصَّرْفَة) ، لأن الله سبحانه حين نَزَّل القرآن ، كتب فجأة على العرب وعلى سائر الخلائق أن تكون أوهامهم مصروفة صرفاً سرمداً عن القدرة على نظم كلام وتأليفه ، إذا راموا معارضة القرآن أو الإتيان بسورة من مثله ، مع بقاء قدراتهم سالمة على نظم الكلام وتأليفه في سائر أحوالهم. وهذه (الصَّرْفَة) كما ترى ، تسلب نظم القرآن وتأليفه كل فضيلة ، لأنهم مُعْجَزون بالصرفة لا غير!! بل أكبر من ذلك، أن هذه (الصَّرْفَة) تجعل مطالبة الخليفة في الإتيان بمثل القرآن مطالبة ظاهرها أنهم يخبرون في فعل ما طُولبوا به تخييراً مطلقاً ، وباطنهما أنهم مُجْبَرُونَ على ترك فعل ما طُولبوا به إجباراً مفاجئاً لا مخلص منه ، ولا إرادة لهم فيه ، ولا يملكون له دفعاً. فهم قادرون عاجزون في وقتٍ معاً. وهذا عبث محض، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

١٢

هذا العبث الفاضح خليق أن يكون سجية من سجايا ذكاه أبى إسحق النظام وحده، وجيلة من جبلات عقله ، لأنه مطبوع خِلقةً ووراثَةً على مثل هذه الحيل العابثة التي تتصرف مع هياج الطبائع المفطورة على إلف الجدل والمغالطة وحب الظهور على

الخصوم. فأبو إسحق هو ابن أخت أبى الهذيل العلاف، وأبو الهذيل هو سلف واصل بن عطاء البليغ الأثغ، وثلاثتهم هم أئمة (الكلام) الذي أحدثوه، وثلاثتهم لا عمل لذكائهم إلا في الحيل التي تحلب العقول وتدلّس عليها عند النظرة الأولى، مع ادعائهم تحكيم العقل، وتظاهر الشائعة عنهم في زمانهم وبعد زمانهم أنهم ملتزمون بما يلزمهم به العقل وحده. هذا عجب إن شئت، أو ليس بعجب إن شئت، ولكن الأعجوبة، كما يقول أيو عثمان الجاحظ، هو أن يكون أبو عثمان الجاحظ ممن تقنعه هذه الأغلوطة المفتعلة الظاهرة البطلان والتناقض، وأن يكون أبو عثمان ممن يدافع عنها ويعتقدها لنفسه مذهباً. وتفسير هذه الأعجوبة يحتاج إلى كلام يطول ليس هذا مكانه، ولكنك ستري أن أبا عثمان لن يصبر طويلاً على هذا الخضوع لحيل صاحبه وخليله. وذلك أن أبا إسحق النظام لما أعجبته نفسه حين بلغ هذا المبلغ من تصحيح الشرط في الآية، وهو (عجز الخليفة) بما سماه (الصرفة)، استخفه تهوره، كما روى أبو عثمان الجاحظ في كتاب (حجج النبوة)، [انظر ما سلف ص ٢٧] فذهب يقول: (إن القرآن حق، (أي هو بالصرفة آية كآيات الأنبياء) وليس تأليفه بحجة، (أي: ليس نظمه وتأليفه آية)، وأنه تنزيل، (أي: هو وحى من الله

تعالى) وليس ببرهان ولا دلالة ، (أي: أن الوحي ليس بأية كآيات الأنبياء) . ثم غلا فذهب يقول : (إن الآية في القرآن والأعجوبة، هو ما فيه من الإخبار بالغيوب، وأن العرب لو خُلِّيَ بينهم وبين معارضته، (ولم تأخذهم عنه الصرفة) لكانوا قادرين على الإتيان بمثله). ومعنى هذا أنه يسلب نظم القرآن وتأليفه وبيانه كل فضل وفضيلة ، وأن الآية كل الآية هو فيما أحدثه الله، عند تنزيل القرآن، من صرف أوهام الخلائق جميعاً صرفاً سرمداً عن معارضته، إذا هم همُّوا في أنفسهم بأن يفعلوا !

وعندئذٍ فرع أبو عثمان فرعاً شديداً، وعلم أن الرجل قد خولط وأخذ ما أخذه، فهو يتخبط تخبطاً لا يُصبر على مثله، ولم يشك أبو عثمان (في جتونه واختلاط عقله). وعلم علماً يقيناً في قرارة نفسه أن الاختصار على تفسير (العجز) بهذه (الصرفة) وحدها، مُقْضٍ إلى مثل هذا الهوس، وإلى ما هو أبلغ منه وأفحش. وأدرك أيضاً إدراكاً لا ريبه فيه أن خليله أبا إسحق، على ذكائه توقده، وعلى بعض ما اكتسبه من تذوق البيان، قد خُتِمَ على تذوقه ختماً بما أَلِفَ من اللدد والجِدال وحب الغلبة على الخصوم، فانطمس حسُّه، وتجهَّم طبعه، ومُحَقَّ ما اكتسب من التذوق محقاً لا حياة له من بعده. أما هو فقد أنجاه فرعه من مثل ما تخبط فيه

خليله، وهداه ما فُطر عليه من تذوق البيان، ومن يقظته الحس،
 ومن بشاشة الطباع، فأدرك إدراكاً خفياً أن الأمر أجلُّ من أن يتردد
 فيه متردد، فإن نظم القرآن وتأليفه وبيانه، يهز القلوب هزاً
 ويهيئها على الأريحية، ويقرع الأسماع قرعاً يطررها على الإصغاء
 والإطراق أطراً لا ينكره إلا معاند. فإن يكن خليله أبو إسحق قد
 اختل به اختلاباً حتى سلم عقله بالصرفة، فإن تذوقه للبيان،
 وبراعته هو في البيان، وبشاشة قلبه للبيان، قطعت ما بينه وبين
 خليله أبي إسحق، فتجرد لتأليف كتابه (الاحتجاج لنظم القرآن،
 وسلامته من الزيادة والنقصان)، ووصفه في (حجج النبوة) حيث
 يقول: (كتبت لك كتاباً أجهدت فيه نفسي، بلغت منه أقصى ما
 يمكن مثلي، في الاحتجاج للقرآن، وللدرد على كل طعان، فلم أدع
 فيه مسألة لرافضي ولا لحديثي ولا لحشوي، لا لكافر مبادٍ ولا
 لمناق مقموع، ولأصحاب النظام، ولمن نجم بعد النظام، ممن يزعم
 أن القرآن حق، وليس تأليفه بحججه، وأنه تنزيل، وليس ببوهان ولا
 دلالة). ثم يبين عن رفضه كل ما قال خليله أحسن إبانة حيث
 يقول: (لأن رجلاً من العرب لو قرأ على رجل من خطبائهم
 وبلغائهم سورةً واحدة، طويلة أو قصيرة، لتبين له في نظامها
 وخرجها، وفي لفظها وطبعها، أنه عاجز عن مثلها. ولو شحدي بها

أبلغُ العربَ لظهر عجزه عنها. وليس ذلك في الحرف والحرفين، والكلمة والكلمتين. ألا ترى أن الناس قد كان يتهمون في طبائعهم، ويجري على ألسنتهم، أن يقول رجل منهم : (الحمد لله)، و(إنا لله)، و (على الله توكلنا) و(ربنا الله) و (حسبنا الله ونعم الوكيل). وهذا كله في القرآن، غير أنه مُتَفَرِّقٌ غير مجتمع، ولو أراد أنطق الناس أن يؤلف من هذا الضرب سورة واحدة، طويلة أو قصيرة، على نظم القرآن وطبعه، وتأليفه مخرجه، لما قدر عليه، ولو استعان بجميع قحطان ومعد بن عدنان). [انظر ما سلف ص : ٢٤، ٢٥]

وهاتان الكلمتان اللتان كتبهما أبو عثمان، تدلان دلالة ظاهرة على أن الخُلة بين الخليلين قد تَهَتَّكت، وأن أبا عثمان قد رمى بعقل خليله أبي إسحق النظم تحت قدميه، ووطئه وطأة المتناقل. ولكن الأعجوبة أن هذا الظاهر الذي لا شك في تبلّجه ووضوحه، لم يكن إلا تناقضاً فاضحاً في مذهب أبي عثمان. فإننا نراه لم يزل مصرّاً على اعتقاد (الصِّرفة)، وعلى التبجح بها إلى أن أُلِّفَ أواخر كتبه، ككتاب الحيوان. بيد أن ما كان منه، من تأليفه كتاب (الاحتجاج لنظم القرآن) وكتاب (حجج النبوة) يدل أيضاً على أنه فزع وخالف النظم مخالفة صريحة في أقواله الخيشة التي ولَدَتْها (الصِّرفة). وأوضح من ذلك بيئاً، كما رأيت منذ قريب،

أنه يرى أن نظم القرآن وتأليفه وطبعه وخرجه، لا يقدر على مثله أحد من العرب، ولو استعان بجميع قحطان ومعد بن عدنان = وأنه لو تُحدَّى أبلغ البلغاء بسورة واحدة، طويلة أو قصيرة، لظهر عجزه عنها. ومعنى ذلك أنه يرى نظم القرآن و تأليفه، يظهر (العجز) في أنفس الخلائق. إذن، فقد صار بينا أن عند أبي عثمان ضرباً من (العجز) ثالثاً، غير (العجز) الأول القديم المفروز في أنفس الخلائق، فيما استأثر الله به وحده، وهو الباب الذي جاءت عليه آيات جميع النبيين قبل محمد صلى الله عليه وسلم، وغير (العجز) الثاني الذي أحدثه الله تعالى فجأة في أنفس الخلائق عند تنزيل القرآن، وهو (الصرفة)، فصار عجزاً سرمداً عن أمر واحد، هو معارضة القرآن والإتيان بسورة مثله. ثم هذا (العجز) الثالث، وهو ما يوجبه نظم القرآن وتأليفه، من قطع أطماع البلغاء من إدراكه أو الإتيان بمثله. ومعنى هذا أن مع القرآن العظيم (عجزين) عجزٌ مرده إلى الصرفة، وعجزٌ مرده إلى نظم القرآن وتأليفه والذي لا شك فيه أن أحدهما كافٍ من صاحبه، فإما (العجز) بالصرفة، وإما (العجز) بنظم القرآن وتأليفه. أمّا الجمع بين (العجزين) فليس يجتمع في عقل أحد يعقل، فأحدهما يلغى الآخر، (كما ألغيت في الدية الحوار)، [كما يقول ذو الرمة].

لكن هكذا كان ما كان من أبى عثمان الجاحظ ، البليغ المعتزلى !!
 عقل واحد يجمع بين المتناقضين جمعاً لا غضاضة فيه عليه! (وهل
 يُجْمَع السيفان، ويحك، في غمْد) ؟ كما تعجب أبو ذؤيب الهذلى
 من أمر صاحبتة ام عمرو، فأنا أتعجب أيضاً من أمر صاحبى أبى
 عثمان.

١٣

ومع ذلك، فأنا أظن أن أبا عثمان، كان يعانى المشقة من
 هذا التناقض : بين ما ألفه زمنا مع صاحبه أبى إسحق في تأليف
 القرآن من القول في (الصِّرْفَة) التي اخترعها معا، وما أدت من
 القول الخبيث الذي قاله أبو إسحق النِّظَام = وبين ما هُدى إليه
 بالتذوق من أن نظم القرآن وتأليفه، يُعجزُ كلَّ أحدٍ. ودليل ذلك
 أنى رأيت في كتاب الحيوان، وهو من آخر كتبه، ذكر مسألة هُدهد
 سليمان وآيات أخرى مما جاء في كتاب الله سبحانه، وأدار أمر
 تفسيرها على (الصِّرْفَة) بأسلوب جديد، واستغرق في ذلك أوراقا
 كثيرة (الحيوان ٤ : ٩٠) فلما بلغ أواخر تفسيره قال هذه الكلمة
 الصريحة الدلالة (وفى كتابنا الذي يدلُّ على أنه صدق، نظمه

البديع الذي لا يقدر على مثله العباد، مع ما سوى ذلك من الدلائل التي جله بها من جله به).

ثم ختم هذا الفصل بعد ذلك بتعريض القول بالصَّرْفَة لمناقشة الخصوم، وإعادة النظر في أمرها! وهذا حسبك من الشك في سلامتها، فقال هذه الكلمة الجليلة (الحيوان ٤ : ٩٣): (فبهذا وأشباهه من الأمور، نحن إلى الإقرار به مضطرون بالحجج الاضطرارية، فليس لخصومنا حيلة إلا أن يُوافِقُونَا (أي أن نجتمع نحن وهم معًا للمناظرة) وينظروا في العلة التي اضطررتنا إلى هذا القول (وهذه العلة هي الصَّرْفَة)، فإن كانت صحيحة، فالصحيح لا يوجب إلا الصحيح = وإن كانت سقيمة، علمنا أننا أوتينا من أقاويلنا).

فهذا تشكك، ومعاناة ظاهرة مما يشعر به من التناقض بين قوله بالصَّرْفَة، وبين ما هُدى إليه، بعد بذل أقصى الجهد، كما قال فيما كتبه في (الاحتجاج لنظم القرآن)، وأظنه لولا الحيلة والإلف، لفارق أبو عثمان الشك المتلفع إلى اليقين السافر، ولطرح (الصَّرْفَة) حيث تستحق أن تطرح.

كان فزع أبى عثمان الجاحظ من هذه الأقوال الخبيثة التي أفضت إليها (الصَّرْفَة) حافزاً له على إعادة النظر في الأمر كله. ولما قال صاحبه النظم مقالته التي تسلب القرآن كله فضيلة، وأن العرب لو خُلِّيَ بينهم وبينه لقدروا على الإتيان بمثله = لم يصبر المعتزلى البليغ المتذوق على ضلالة صاحبه المعتزلى وخليله، وأبى أن يُقَرَّ بأن (العَجَز) كان مرده إلى الصَّرْفَة وحدها، لأن تذوقه وتذوق الأمة من قبله قاضٍ قاطع بأن بديع نظم القرآن وتأليفه (مما لا يقدر على مثله العباد).

ومضى على هذا الفزع زمانٌ، حتى جاءته رسالة من صديق يسأله أن يكتب له شيئاً عن القرآن وكانت عبارته مبهمة، أو هكذا زعم أبو عثمان، فأسرع يكتب ما كان يشغله من أمر نظم القرآن وتأليفه، مع أن صديقه كان كتب إليه يسأله أن يكتب له عن (الاحتجاج لخلق القرآن). كما ذكر أبو عثمان، وقال لصديقه فيما بعد: (فكتبت لك أشقَّ الكتابين وأثقلهما وأغمضهما، وأطولهما طولاً) فكان هذا لكتاب هو (الاحتجاج لنظم القرآن، وسلامته من الزيادة والنقصان) وقد ذكر أبو عثمان ما لقي في

تأليف هذا الكتاب فقال : (كتبت لك كتابا أجهدت فيه نفسي، وبلغت منه أقصى ما يمكن مثلي)، وقد سماه هو في كتاب الحيوان (٩:١) (الاحتجاج لنظم القرآن، وغريب تأليفه، وبديع تركيبه).

وهذا الكتاب اليوم مفقود، مع شهرته المستفيضة، كانت، عند أهل القرنين الرابع والخامس من الهجرة، وليس في أيدينا منه نصوص تذكر، فحكمنا عليه غير ممكن، وإنما تقتصر في ذلك على قول أبي عثمان نفسه، وعلى بعض أقوال من رأى الكتاب. وكان أقربهم إلى أبي عثمان زمنا هو ابن الخياط المعتزلى (أبو الحسين عبد الرحيم بن محمد بن عثمان)، المتوفى أوائل القرن الرابع، فهو يقول في كتابه (الانتصار في الرد على ابن الراوندى الملحد) (توفى سنة ٢٩٨ هـ): (لا يعرف المتكلمون أحدا متهم نصر الرسالة واحتج للنبوّة، بلغ في ذلك ما بلغه الجاحظ، ولا يعرف كتاب في الاحتجاج لنظم القرآن وعجيب تأليفه، وأنه حجة لمحمد صلى الله عليه وسلم على نبوته = غير كتاب الجاحظ).

وهذه شهادة مهمة جدا من رجل، لعله رأى الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ هـ أو كان قريبا أن يراه، وهى تقطع بأن أول قائل في القرآن، من جهة النظم والتأليف، هو أبو عثمان. وقد ذكره ابن

الخياط أيضا في أول كتاب الانتصار (ص : ٢٥) فقال: (فمن قرأ كتاب عمرو بن بحر الجاحظ في الرد على الشيعة، وكتابه في الأخبار وإثبات النبوة، وكتابه في نظم القرآن = علم أن له في الإسلام غنَّةً عظيما لم يكن الله عز وجل ليضيِّعه له.

ثم يمضي بعد ذلك أكثر من ثلاثة أرباع قرن، فنجد القاضى الباقلانى (المتوفى سنة ٤٠٣هـ) يصف هذا الكتاب في كتابه (إعجاز القرآن) (ص : ٧) فيقول : (وقد صنف الجاحظ في نظم القرآن كتابا، لم يزد فيه على ما قاله المتكلمون قبله، ولم يكشف عما يلتبس في أكثر هذا المعنى) وهذه كلمة فيها بعض الغبن لما كان في كتاب أبى عثمان. أما الغبن الأعظم فهو إيهام الباقلانى أن المتكلمين قد سبقوا إلى مثل ما سبق إليه الجاحظ في هذا الكتاب. وقد رأيت سياق ما كتبتُ أنا عن نشأه فكرة هذا الكتاب، ومن أين جاءت ولم؟ ورأيت أيضا مقالة ابن الخياط : (لا يُعرَف كتاب في الاحتجاج لنظم القرآن.. غير كتاب الجاحظ)، فهذا هو الحق الذي أنكره القاضى الباقلانى، غضا من أبى عثمان بغير حق، وتحاملا عليه.

ونحن لا ندرى على وجه التحقيق ماذا يتضمن كتاب (نظم القرآن) ولكن سلف ما ذكره الجاحظ نفسه عن (نظم القرآن

ويديع تأليفه) ، وبقي ما قاله في كتاب الحيوان (٣ : ٨٦) ، وأنا أقطع بأنه يعنى هذا الكتاب : (ولى كتابُ جمعتُ فيه آيات من القرآن، لتعرف بها فصل ما بين الإيجاز والحذف، وبين الزوائد والفضول والاستعارات، فإذا قرأتها رأيت فضلها في الإيجاز، والجمع للمعاني الكثيرة بالألفاظ القليلة، على الذي كتبته لك في باب الإيجاز وترك الفضول..... وهذا كثيرٌ قد دلتك عليه، فإن أردته فموضعه مشهور) وإذن، فغير مُنكر أن يكون الجاحظ قد سلك في أبواب من هذا الكتاب مسلك المتكلمين، كما قال القاضى الباقلانى، فإن الجاحظ نفسه قد دلنا على ذلك فيما نقلته آنفا من كلامه [ص٦٧]، ولكنه أيضا قد سلك غير مسلك المتكلمين في أبواب أخرى منه، كالتى أشار إليها في هذا النص القريب السالف، وتكلم في وجوه ليس للمتكلمين فيها منفذ، لأنها من عمل الكتاب والبلغاء والذين يتذوقون البيان تذوقا أرهفته الخبرة والإلف والشغف المهوف بالبيان.

وقد يكون الباقلانى معذورا فيما قاله مما يغض من شأن أبى عثمان، وذلك أن الجاحظ، بلا ريب، دخل إلى (نظم القرآن ويديع تأليفه) من باب (الكلام) كما رأيت آنفا، وقد أعدَّ عدته لإثبات أن (نظم القرآن وتأليفه) آية كسائر آيات الأنبياء، وأن هذه

الآية حجة لنبينا صلى الله عليه وسلم على الناس، وأن مثل هذا النظم والتأليف لا يدخل في قدرة أحدٍ من العباد. فلعلَّ أبا عثمان كان قد خلط في كتابه هذا بين المسلكين: مسلك المتكلمين، ومسلك المتذوقين من أهل البيان. فلما جله الباقلاني بعد أكثر من مائة سنة، وبلغ من العلم ما بلغ، وقرأ كتباً في (نظم القرآن وتأليفه) كُتِبَتْ بعد كتاب الجاحظ، ولعلها خَلَّصَتْ الخلط بين المسلكين = ثم قرأ كتاب أبي عثمان، لم ير فيه إلا عمل المتكلمين من المعتزلة، ولم يخطر له ببال أن أبا عثمان هو أول من كتب في هذا الباب كتاباً، كما يشهد بذلك ابن الخياط آنفاً، وهو ما يدل عليه أيضاً تاريخ القول في (إعجاز القرآن). كما أسلفت بيانه.

١٥

١ - بعد هذا، أجدني قد أشرفتُ الآن على بابٍ من النظر في بقايا أقوال أبي عثمان في (نظم القرآن) وهى أقوال تفرقت فيما بقى لدينا من كتبه المشهورة، وقد أسلفتُ نقل كثير منها = ثم إعادة النظر في الأثر الذي أحدثه كتابه الذي لم يصلنا، وهو كتاب (الاحتجاج لنظم القرآن، وغريبُ تأليفه وبديع تركيبه)، كما سماه هو، أو كتاب (الاحتجاج لنظم القرآن، وسلامته من الزيادة

والنقصان) كما سماه القاضى عبد الجبار في كتاب (تثبيت النبوة). وهذا الباب يحتاج إلى فضل تأمل، للفصل بين حقيقة ما قاله أبو عثمان، وبين الطريق الذي سلكه من جاء بعده معتمدًا على كتابه. وقد بينت آنفاً أن أبا عثمان قد افتتح القول في (نظم القرآن وبديع تأليفه). من موقف المناكرة لما أدت إليه مقالته هو ومقالة صاحبه أبى إسحق النظم في (الصرفة). لم يتنكر أبو عثمان للصرفة، ولكنه تنكر أشد التنكر لما أدت إليه أقوال خليله أبى إسحق النظم، وأقوال من نجم بعد النظم، وهى الأقوال الخبيثة التي تسلب القرآن كل فضيلة، وتزعم أن لو خُلّي بين العرب وبين معارضة القرآن لكانوا قادرين على الإتيان بمثله، لولا (الصرفة)! وقد فزع أبو عثمان إلى تذوقه لبيان القرآن، وهو التذوق الذي كان عليه سائر المسلمين منذ عهد الصحابة الأول، وتبينهم تبيينًا لا لبس فيه أن هذا القرآن الذي نزل عليهم بلسان عربي مبين، ليس يشبه بياؤه بيان أئمة الشعراء وأصحاب الألسنة البليغة، وأنه غلط متفرد، لا يطابق تأليفه وتركيبه أعماط المؤلف من بيانهم. وهم مطبقون جميعا، بهذا التذوق، على أنه كلام رب العالمين، المابين لكلام البشر. وتدُلُّ الكلمات الباقية في كتب أبى عثمان، والتي ذكر فيها نظم القرآن وغريب تأليفه وبديع تركيبه،

على أمر مهم جداً، هو أنه كان في جميع ذلك يصف هذا التذوق، الغامض الغامر السارى في نفسه. كان يصفه صفة التأمل المستبطن لما يتذوقه، لا صفة المعتزلي المتكلم المفسر لحقيقة هذا التذوق بالتقسيم والتبويب والتفصيل، وكل كلماته دالة أبين الدلالة على أنه كان يستخرج من أعماق اللغة نعتاً بعد نعتٍ لأقصى ما يجده في أغوار نفسه من أثر تذوق هذا الكتاب العربي، المبين نظمه وتأليفه سائر تأليف الكلام العربي وتركيبه ونظمه. وقد وصف الجاحظ هذا الجهد في الاستخراج في كتاب (حجج النبوة) حيث قال لصاحبه: (كتبت لك كتاباً أجهدت فيه نفسي، وبلغت منه أقصى يمكن مثلى في الاحتجاج للقرآن، والرد على كل طعان). والنصوص السالفة التي نقلتها من كلامه، دالة على أنه كان ينعت شيئاً مستقراً في نفسه وفي نفوس الأمة، البيان عنه مُستعص، والألسنة عن إبرازه باللفظ عاجزة، فاجتهد وحاول وجاء في ذلك بما لم يسبقه إليه من الناس من ألفاظ جعلها نعتاً وأوصافاً للقرآن نفسه، ولصنيعه في النفوس، وتأثيره في القلوب.

وأظن أن أبا عثمان قد استطاع ببراعته وبيانه وتدقيقه، أن يضع في هذا الكتاب ألفاظاً عظيمة الوقع في النفوس بإبهامها واستشارتها، ونشرها في جمل بارعة الصياغة متألفة الألفاظ فجاءت مشيرة لكوامن الخواطر، قريبة الإيحاء بالمعاني البعيدة. ومن هذه

الألفاظ ما مر بنا من مثل قوله: (نظم القرآن، وبديع تركيبه،
وغريب تأليفه = وطبع القرآن، ومخارج آياته، وحسن بيانه، وجميع
المعاني الكثيرة بالألفاظ القليلة = والقرآن كتابنا المنزل الذي
يدلنا على أنه صدقُ نظمُ البديع الذي لا يقدر على مثله العباد =
ولو تُحدَى أبلغ العرب بأقصر سورة منه لتبين في نظامها ومخرجها
ولفظها وطبعها أنه عاجز عنها).

وحسب أبي عثمان فضيلة وفضلا أنه هو الذي افتتح هذا
الباب بألفاظه البارة القوية الإيجاء، وبها في سياق تركيب كلامه،
حاملة تدفقه في نعت ما يجده في نفسه من وقع القرآن عليها
وتأثيره فيها، فمهّد لمن بعده أن يتناول القضية تناولا يعينه على أن
يصوغها صياغة قابلة للإثبات، وذلك بأن يستخرج العلة التي كان
هذا القرآن، بنظمه وبيانه، مما لا يقدر على مثله العباد = ومن أي
وجه يتبين للبليغ، إذا سمع سورة منه، أنه عاجز عنها؟ ولكن ما
لاحظت: أن أبا عثمان، لم يذكر قط (بلاغة القرآن)، ولم يجعلها
الوجه الذي كان منه عجزُ العرب عن معارضته، مع أنه كان يذكر
في هذا الصدد (بلاغة الشعراء والخطباء)، ويذكر (أبلغ العرب)
وأشبه ذلك، دون أن يستخرج منه أن وجه (إعجاز القرآن) هو
بلاغته. وهذه ملاحظة لا بد منها، ولأن الأمر سيظهر ظهورا بيّنا
بعد قليل.

٢- جله بعد أبى عثمان الجاحظ (المتوفى سنة ٢٥٥) أبو عبد الله محمد بن يزيد الواسطي المتكلم المعتزلى، (المتوفى سنة ٣٠٦)، [انظر ما سلف : ص ٢٨] وهو أول من نعلم أنه أنشأ كتاباً يحمل عنوانه لفظ (إعجاز القرآن) وهو اللفظ الذي كان دانيّاً في كلام أبى عثمان الجاحظ ثم تجاوزه، كما قلت آنفاً، واستخرجه استخراجاً من كتب أبى عثمان، ولا سيما كتابه (الاحتجاج لنظم القرآن). وإذا كان قد فعل ذلك، فإنه من القريب الذي لا يكاد يُدفع، أنه هو نفسه الذي استخرج لفظ (المعجزة) وهو يريد بها (آية النبي) التي يستدل بها على نبوته، كإحياء الموتى وإبراء الأكمه. ومن الدليل على أنه هو أول من فعل ذلك، على الأرجح، أن أبا عثمان لم يستعملها قط، ولا استعملها أحد من معاصريه من علماء الأمة على اختلافهم، وإنما كانوا يقولون: (آيات الأنبياء)، و (دلائل النبوة)، و (أعلام النبوة) و (حُجَج النبوة) و (وبرهان النبوة)، وذلك واضح جداً في كتب الأئمة كالبخارى وغيره. ثم نجد لفظ (إعجاز القرآن)، ولفظ (معجزة النبي) و (معجزات الأنبياء)، قد وجد فجأة في الكتب التي جلت بعد كتب الواسطي. فالأشبه بالحق أن يكون هو أول من أكثر استخدام هذين اللفظين، حتى غلبا على السنة الناس جميعاً إلى يومنا هذا.

ولم يصلنا كتاب أبي عبد الله الواسطي، ولا نحمد في أيدينا منه شيئاً يُذكر سوى عنوانه، مع أنه كان كتاباً مشهوراً عند أئمة علم البلاغة إلى القرن الخامس الهجري، ولذلك لا نستطيع أن نقول فيه قولاً يُعتمدُ به. ولكن تاريخ القول في شأن القرآن وإعجازه، يدل على أنه جاء بعد أبي عثمان الجاحظ مباشرة، وأنه استخرج منه عنوان كتابه (إعجاز القرآن)، وأفرد القول فيه على حدة، وأنه صار أصلاً لمن جاء بعده من ألف كتاباً في (إعجاز القرآن). وأنا أرجح أيضاً أنه أول من استخرج من ثانياً أقوال أبي عثمان الجاحظ، في نعت تذوق القرآن، وما بثّه في خلال ذلك من الاحتجاج لنظم القرآن = استخرج ما سوف يدور عليه القول في إعجاز القرآن، إلى يومنا هذا. وذلك أنه هو الذي بيّن بياضاً واضحاً أن الوجه الذي كان منه القرآن معجزاً هو: بلاغته، وأن (بلاغة القرآن) هي (الآية). وهذا ما يدل عليه السياق التاريخي للتأليف في (البلاغة).

٣- والدليل على ذلك أن الرجل الثالث النحوي المتكلم المعتزلي، بعد أبي عثمان الجاحظ، وأبي عبد الله الواسطي، وهو أبو الحسن علي بن عيسى الرّماني المعتزلي، (٢٩٦-٣٨٦هـ)، والذي كان قد بلغ الثانية عشرة من عمره حين مات الواسطي = أنشأ

كتاباً سماه: (تُكَّتْ في إعجاز القرآن)، فذكر فيه وجوه (إعجاز القرآن)، وخص من هذه الوجوه (بلاغة القرآن)، فذكر طبقات البلاغة ثم أقسامها، وهذا شيء لم يكن على عهد أبي عثمان الجاحظ، وإن كان هذا الباب أيضاً مُسْتَخْرَجاً من كتب أبي عثمان، ولا سيما كتاب (البيان والتبيين). ولا بد من إثبات ما قاله الرُّمَّانِي في افتتاح كتابه، لأن هذا يجعل الأمر كله واضحاً كل الوضوح، قال: (وجوه إعجاز القرآن تظهر من سبع جهات: تركُّ المعارضة مع توفر الدواعي وشدة الحاجة = والتحدى للكافة = وَالصَّرْفَةُ = والبلاغة = والأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلية = ونقض العادة = وقياسه بكل معجزة. فأما البلاغة فهي على ثلاث طبقات، منها ما هو في أعلى طبقة، ومنها ما هو في أدنى طبقة، ومنها ما هو في الوسائط بين أعلى طبقة. فما كان في أعلاه طبقة فهو (معجز)، وهو بلاغة القرآن، وما كان دون ذلك فهو ممكن، كبلاغة البلغاء من الناس..... وأعلاها طبقة في الحسن بلاغة القرآن، وأعلى طبقات البلاغة للقرآن خاصة. وأعلى طبقات البلاغة مُعْجَز للعرب والعجم، كإعجاز الشعر للمفحم، فهذا مُعْجَز للمفحم خاصة، كما أن ذلك مُعْجَز للكافة... والبلاغة على عشرة أقسام: الإيجاز، والتشبيه، والاستعارة، والتلاؤم، والفواصل، والتجانس،

والتصريف، والتضمين، والمبالغة، وحسن البيان = ونحن نفسرها
باباً باباً، إن شاء الله تعالى).

وينبغي أن لا نخلط هنا بين لفظ (البلاغة)، كما جرى في
حديث الجاحظ والواسطي والرماني، وبين (علم البلاغة)، كما
عرف بعد عبد القاهر. هذا فصل لا بد منه هنا. أما هذا الضرب
من تدريج طبقات البلاغة، فإمّا هو عمل من أعمال المعتزلة
المتكلمين، لا أصل له في العقول، بل هو تخطيط عقلي مبهم لا
قيمة له البتة، وعادة سيئة من التحكم في المعاني بغير دليل ولا
برهان، إلا الخداع المجرد بالتزام العقل وأحكامه! وسياق حديثي
هنا يعينني من تتبع عورات هؤلاء المتكلمين، ولا سيما المعتزلة.

١٦

كانت ثمرة هذا السياق الذي اتصل منذ عهد أبي عثمان
الجاحظ (١٥٠-٢٥٥هـ)، إلى أن انتهى إلى الرّماني (٣٨٦هـ-)
هو: أن التحميت خمسة ألفاظ التحاماً واحداً، في الفكر وفي
الاستعمال، في كل بحث يكون في شأن القرآن، وفي كلام المتقنين
والمختلفين على السواء، وهذه الألفاظ الخمسة هي: (الإعجاز،
والمعجزة = التحدي، والعجز = البلاغة)، وكان لفظ (البلاغة)

هو أشدهن سحرًا، حين وُضع في حَيِّز الإبانة عن أعظم وجوه (إعجاز القرآن)، وذلك لأن لفظ (البلاغة) الذي أسند إليه (إعجاز القرآن) كان، ولم يزل، لفظًا مبهمًا غير يَبِّين المعالم والحدود والدرجات، فكان لهذا الإبهام، مع حضور التذوق في الأنفس حضورًا واحدًا حيًّا في تذوق نظم القرآن وتأليفه، وفي تذوق نظم الشعر والكلام البليغ = كان له سحر يربط هذا التذوق، بلفظٍ له في نفسه دلالة مغرية، فيوهم المرء بأن معناه يَبِّين، والحقيقة أن معناه ليس يَبِّين ولا محدود. ولم يغفل بعض القدماء عن موطن هذا الغموض والإبهام، بل انتبهوا له، ولكن جرفهم سحر لفظ (البلاغة) في حيز (إعجاز القرآن)، فسكتوا عنه، أو ذكروه ثم تجاوزوه، وعادوا إلى البلاغة، بلا غضاضة ولا تردّد.

٤- ومن الدليل على ذلك أن الرجل الرابع، بعد الثلاثة الأول، كان أول من صرّح بغموض هذا اللفظ، ثم عاد إليه مسحورًا به، وسار في الطريق الذي مشى فيه مَنْ قبله، وسيمشى فيه مَنْ بعده، وهذا الرجل هو الإمام الجليل القدر في أهل السنة، وعند أهل الأدب واللغة: أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي البستي، من ولد زيد بن الخطاب أخى عمر بن الخطاب رضى الله عنهما. وقد ولد أبو سليمان الخطابي سنة ٣١٩، وتوفى

سنة ٣٨٨ هـ، فهو معاصر لأبي الحسن الرُّمَّاني المعتزلي، وإن كان أبو الحسن أسنَّ منه، وخليق أن يكون في مرتبة شيوخه. وقد كتب أبو سليمان رسالة سماها (كتاب بيان إعجاز القرآن)، والوقوف على ما افتتح به كتابه، أمرٌ لا بدُّ منه، لنعرف السياق الصحيح الذي سار فيه تاريخ (إعجاز القرآن). يقول أبو سليمان في فاتحة رسالته: (القول في بيان إعجاز القرآن. قال أبو سليمان: قد أكثر الناس في هذا الباب قديماً وحديثاً، وذهبوا فيه كل مذهب من القول، وما وجدناهم صدروا عن رى، وذلك لتعدُّ معرفة وجه إعجاز القرآن، ومعرفة الأمر في الوقوف على كلفيته)، فأبان عن الحيرة التي تبحث عن شيء مُبهم تتلمَّسه تلمُّساً، ثم ذكر أربعة وجوه في إعجاز القرآن، فأولها: ما كان من ترك معارضته، منع وقوع الحاجة إليها، وهذا دليل (العجز) ثم وصفه فقال: (وهذا من وجوه ما قيل فيه، أبينها دلالة، وأيسرها مؤونة، وهو مقنع لمن لم تنازعه نفسه مطالعة كيفية وجه الإعجاز فيه) = ثم ذكر الوجه الثاني، وهو (الصرقة) فردّه وأبطله = ثم ذكر الوجه الثالث، وهو الإخبار عن الكوائن في مستقبل الزمان، فضمَّه ولم يرده - ثم ذكر الوجه الرابع، فأتى فيه بكلام مهم جداً، ينبغى أن تقرَّاه بعناية، قال أبو سليمان: (وزعم آخرون أن إعجازه من جهة

البلاغة، وهم الأكثرون من علماء أهل النظر، وفي كيفية يعرض لهم الإشكال، ويصعب عليهم منه الانفصال. ووجدت عامة أهل هذه المقالة قد جروا في تسليم هذه الصفة للقرآن على نوع من التقليد، وضرب من غلبة الظن، دون التحقيق له وإحاطة العلم به. ولذلك صاروا إذا سئلوا عن تحديد هذه البلاغة التي اختص بها القرآن، الفائقة في وصفها سائر البلاغات، وعن المعنى الذي يتميز به عن سائر أنواع الكلام الموصوف بالبلاغة، قالوا: إنه لا يمكننا تصويره ولا تحديده بأمر ظاهر نعلم به مباينة القرآن غيره من الكلام، وإنما يعرفه العالمون به عند سماعه ضرباً من المعرفة لا يمكن تحديده، وأحالوا على سائر أجناس الكلام الذي يقع فيه التفاضل، فتقع في نفوس العلماء به عند سماعه معرفة ذلك..... قالوا: وقد يخفى سببه عند البحث، ويظهر أثره في النفس، حتى لا يلتبس على ذوى العلم والمعرفة به قالوا: وقد توجد لبعض الكلام عذوبة في السمع، وهشاشة في النفس، لا توجد مثلها لغيره منه، والكلامان معاً فصيحان، ثم لا يُوقَفُ لشيء من ذلك على علة. قال أبو سليمان الخطابي. قلت: وهذا لا يقنع في مثل هذا العلم، ولا يشفى من داء الجهل، وإنما هو إشكال أحيل إبهام).

ولست هنا بصدد بيان مقالة أبى سليمان أو غيره في إعجاز القرآن، بل همى هنا أن أظهر هذه الحقيقة، وهى أن (البلاغة) التى جعلوها وجهاً من وجوه الإعجاز، إذا أنت ذهبت تتطلب بيانها، وجدتها مخوفة بالإبهام، لا تثبت على النظر! ثم لا أكتف عجبى من أن أبا سليمان قد كشف هذا الإبهام كشفاً لا مربية فيه، فلما أراد أن يقول في الإعجاز برأيه، لم يزد على ما فعله الرمانى في تقسيم أجناس الكلام الفاضل ومراتبه، وجعلها ثلاثة: (البليغ الرصين الجزل = والفصيح القريب السهل = والجائز الطلق الرسل = فالقسم الأول أعلى طبقات الكلام وأرفعه، والثانى أوسطه وأقصده، والثالث أدناه وأقربه، فحازت بلاغة القرآن من كل قسم من هذه الأقسام حصّة وقد توجد الفضائل الثلاث على التفرق في أنواع الكلام، فأما أن توجد مجموعة في نوع واحد منه، فلم توجد إلا في كلام العليم القدير!! والعجب من هذه المبهمات الثلاثة التى لا حدود لها، إذا هي اجتمعت، كيف يخرج منها ما نسميه (إعجاز القرآن)؟ وسرُّ هذا الاضطراب بعد الاستقامة والوضوح، هو سحر لفظ (البلاغة). كما أسلفت.

٥- أما الرجل الخامس، الذى كان مع الرُّمَّانى المعتزلى، وأبى سليمان الخطَّابى من أهل السنة في زمان واحد، (توفى سنة

٤٠٣) فهو القاضي أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد الباقلاني، (شيخ السنة، ولسان الأمة)، وهو أحد بحور العلم في القرن الرابع، وهو رأس الطبقة الثانية من أصحاب أبي الحسن الأشعري، (علي بن وإسماعيل بن أبي بشر)، من ولد أبي موسى الأشعري الصحابي (٢٦٠ - ٣٢٤هـ). وكان متكلماً لا يُبَارَى في نصرته مذهب الأشعري، ولكنه كان أيضاً أديباً جيد التدقيق ينفي عن نفسه صدام الكلام. وقد ألّف القاضي الباقلاني كتاباً جليل القدر، فريداً، هو كتابه (إعجاز القرآن)، وقد ذكرت بعض قولي فيه آخر (المدخل الثالث) من هذا الكتاب بما يغني عن ذكره هنا. وكتابه دال على أنه كان قد اطلع على جميع كتب من سبقه منذ عهد أبي عثمان الجاحظ، ممن كتب في إعجاز القرآن، وكل من قال فيه قولاً. وقد ذكر كتاب الجاحظ المعتزلي (نظم القرآن) وجار عليه فيه، ثم أشار تعريضاً لا تصريحاً إلى كتاب الرماني المعتزلي حيث يقول: (قد أبنا لك أن من قدر البلاغة في عشرة أوجه من الكلام، لا يعرف من البلاغة إلا القليل، ولا يفطن منها إلا لليسير)، [انظر ما سلف: ٧٩] ولكن الغريب عندي أن ظاهر كتابه لا يدل على أنه اطلع على كتاب أبي سليمان الخطابي، فلو كان قد رآه، لأشار إلى تلك الحقيقة التي كشف عنها الخطابي في

صدر كتابه، من إبهام معنى (البلاغة)، وأن العلماء سلموا بهذه الصفة للقرآن على نوع من التقليد وغلبة الظن.... وأنهم قالوا إنهم لا يستطيعون تحديد هذه البلاغة بأمر ظاهر (يُعلم به مباينة القرآن غيره من الكلام) كما نقلت ذلك منذ قليل. وهذا غريب جداً من بحر متكلم كالقاضي الباقلاني ! بل إن ظاهر كتابه يدل أيضاً على إنه لما ذكر (البلاغة) ذكرها ذكر الواصل المطمئن الذي لا تدخله ريبة في أنه قد فرغ من تحديد معناها في قلبه تحديداً سالماً من العيب، وتصورها في نفسه تصوراً لا يحجبه شك أو غموض.

ولكني بعد التأمل، وجدت الأمر يحتاج إلى نظر، وأنه إما أن يكون القاضي لم يطلع قط على كتاب الخطابي، ولكن ساوره في شأن (البلاغة) ما ساور الخطابي، وإما أن يكون اطلع عليه، ثم سكت عنه وعن التصريح بهذه المقالة، ولم يعاملها معاملة المتكلم، مع أن آفة كتابه هو أنه يحمل آفة المتكلمين من الأشاعرة والمعتزلة جميعاً في النظر، بلجؤهم إلى التكثير والتشقيق والمأحكة التي تنال بها الغلبة على الخصوم. وقد تبين لي أن القاضي رحمه الله منذ بدأ القول (في كيفية الوقوف على إعجاز القرآن) (كتابته ص: ٢٧١) إلى أنه انتهى من كتابه (ص: ٤٦٢)، كان في الحقيقة يحاول محاولة صادقة لإزالة (الإبهام) عن معنى (البلاغة) و(الفصاحة)، ولكنه

كان كسائر المتكلمين، يَصْرِفُه الجدال وَحُبُّ الغَلَبَةِ عن الطريق
الواضح الذي يُلَوِّحُ له من قريب، وتشغله عنه المسالك والمضايق
التي تكشف عن البراعة في الجدال والنظر. والقاضى المتكلم،
كان أيضاً أدبياً ذوّاقاً، فكان إذا حَزَبَه الأمرُ وهو في فَحْصِهِ عن
البلاغة ونظره فيها على طريقة المتكلمين، فزع إلى التذوق الذي
يَعْصِمُهُ من الزلل، فكان دائم الأُوْبَةِ إلى الطريق الذي سلكه من
قبله أبو عثمان الجاحظ، وهو أن ينعت ما يجده في نفسه من تذوق
القرآن، وبديع تركيبه، وغريب نظمه، ودقة رصفه، وروعة بيانه.
ومعنى ذلك في الحقيقة أن فراره من طريق المتكلمين، إلى النعوت
التي يُجَرِّيها أهلُ البيان والتذوق، تكشف عَمَّا يجده في نفسه من
غموضٍ معنى (البلاغة) وما فيها من الإيهام. وقد بلغ القاضى في
ذلك مبلغاً أربى فيه على أبى عثمان الجاحظ، وإن كان في كثيرٍ
من ألفاظه عَالَةً عليه، ونازعاً منه، ولكنه كان أشد تنبُّهاً من أبى
عثمان إلى أن بيان القرآن مفارق لبيان البشر، ولذلك كان أحسن
منه بياناً عن هذا المعنى، وإن كان قد شَغِلَ عنه بحلِّ إشكال
(البلاغة).

٦- ثم جله الرجل السادس، وهو معاصر للرمانى المعتزلى، وللخطابى والباقلانى من أهل السنة، وهو قاضى القضاة (عبد الجبار بن أحمد بن عبد الجبار الهمدانى)، البحر المتكلم المعتزلى، عمر دهرًا طويلًا قارب المئة، وتوفى سنة ٤١٥ من الهجرة، وكان في المعتزلة، كالقاضى الباقلانى في الأشاعرة من أهل السنة. وهو الذي نافع عن الاعتزال، وألف الكتب الكبار الجامعة للمذهب، وصحح منه وزاد فيه. ولكنه لم يكن كالقاضى الباقلانى في التذوق، وإن ضارعه في التكلم (أي في علم الكلام)، وقد كتب القاضى كتابه الكبير: (المغنى)، فعقد جزءًا من أجزائه للكلام في مسألة (خلق القرآن)، وعقد جزءًا آخر للكلام في (إعجاز القرآن) وحشد في هذا الجزء مذاهب أهل الاعتزال في (إعجاز القرآن). وقد سلك قاضى القضاة عبد الجبار سبيل من سبقه من المتكلمين في الإعجاز، ولكنه في خلال ذلك أراد أن يزيل الإبهام عن معنى (الفصاحة) و (البلاغة)، ويفعل ما لم يفعله أحد قبله ممن كتب في (إعجاز القرآن). وكان سبيله إلى ذلك مجرد النظر على أسلوب المتكلمين، وهو أسلوب يعلوه صدأ كثير يجلب من الضرر أضعاف

ما يجلب من النفع، ولا سيما فيما يتعلق بآداب اللسان وتذوق النفوس. وقد كان كلام القاضى خالصاً لعلم الكلام منذ بدأ ذلك في كتابه المسغنى (١٦: ١٩٧-٣١٥). ولكن هذه المحاولة في كشف (الإبهام) والتي تجاوزها القاضى الباقلانى، سوف يكون لها أثر عظيم في تاريخ اللغات والألسنة، والظاهر أن أقوال القاضى عبد الجبار المعتزلى، كانت قد استفاضت وأثارت ضروباً من الصراع والمناقشة بين المعتزلة والأشاعرة، في شأن البلاغة والفصاحة، وامتد الصراع والنظر إلى من يخصهم تفسير (الفصاحة) و (البلاغة) من الأدباء والعلماء وأصحاب اللغة والشعر، ولكنه كان مشوباً بالعصبية للمذهب والتأثر به، وهذا شئ ينبغى أن يتتبعه باحث حتى يقول فيه قولاً مرضياً، من خلال دراسة كتب الآداب والنقد، فيما بين زمن حياة القاضى عبد الجبار، وزمن حياة عبد القاهر.

٧- ثم جله الرجل السابع، جله أمةً وحده، جله ليضع ميسمه على علم قائم برأسه، لم يسبقه إلى مثله أحد، ثم جله من بعده ليتموا عمله ببراعة واقتدار ومع ذلك ظل عمله هو منفرداً بسجايه عن أعماهم : هو الإمام أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني، لعله أدرك أواخر القرن الرابع، ثم توفى في

القرن الخامس سنة ٤٧١ من الهجرة، وعبد القاهر فقيه شافعي، ومتكلم على مذهب أبي الحسن الأشعري، كان إماماً في النحو اللغة والأدب، استوعب ما كان من علم أبي على الفارسي وأبي الفتح بن جني، وهو الذي تولى شرح كتاب (الإيضاح) في النحو لأبي على الفارسي، وسمّاه (المغني) وهو في ثلاثين مجلداً. كانت نشأة عبد القاهر في زمن يموج موجاً بالعلم، وبالصراع بين المذاهب، وبعصبية صاحب كل بضاعة من العلم لبضاعته، وتناثرت أقوال غريبة وتضاربت، إذ كان الفساد قد دخل على الناس، فأصاب منه حصته كل عالم وجاهل، وقد وصف بعض هذا عبد القاهر نفسه في أول كتابه (دلائل الإعجاز)، وأفرد منهم بالذكر طائفة ترى أن (البيان) هو الإفهام لا غير، أمّا ما يسمونه (الفصاحة والبلاغة والبراعة) فلا معنى لها سوى الإطناب في القول، وأن غاية (البيان) أن تعرف أوضاع اللغة، ومغزى كل لفظة وأن تتجنب ظاهر اللحن في الإعراب فإذا فعلت ذلك فأنت (كامل الأداة، بالغ من البيان المبلغ الذي لا مزيد عليه، منته إلى الغاية التي لا مذهب بعدها!

وقد طعنت هذه الطائفة في شيئين: في الشعر (فليس فيه كثير طائل، وأنه ليس إلا ملحّة أو فكاهة، أو بكاء منزل أو طلل..

أو إسراف قول في مدح أو هجاء وإنه ليس بشيء تمس الحاجة إليه في دين أو دنيا)، [دلائل الإعجاز: ٦] = وطعنت في النحو، (فهو ضرب من التكلف، وباب من التعسف، وشئ لا يُستند إلى أصل، ولا يُعتمد فيه على عقل، وأن ما زاد منه على معرفة الرفع والنصب والجر وما يتصل بذلك، مما تجده في المبادئ، فهو فضل (أي زيادة) لا يجدى نفعاً، ولا يُحصل منه على فائدة)، [دلائل الإعجاز: ٦]، هكذا قال عبد القاهر. وأقول: هذا كله شبيه بما يقوله جهلة زماننا عن الشعر، وعن تبسيط النحو واختصاره، والبلاء واحد، ولكنه اليوم أخطر وأبشع وأخبث، لأن الحق اليوم أضعف ناصراً وأقل عدداً].

وكان عبد القاهر نحويًا متكلمًا، ولكنه استودع قدرًا باهرًا من تذوق البيان، فلم يطمس عليه صدأ الكلام والمتكلمين، وزاده تذوقه بصيرة في (النحو). وقريب جدًا أن يكون منذ نشأته قد شارك في معمة الصراع بين الأشاعرة والمعتزلة في كل أبواب (الكلام) التي شغلوا بها واضطرعوا عليها، ولكن يظهر أن عبد القاهر كان يجعل مشاركته هذه مشوبةً دائماً بالحس المتذوق للبيان، فلما استوى واشتد، واتسع علمه بالأدب والشعر واللغة حتى صار فيها إمامًا، كانت تشغله قضية (إعجاز القرآن) التي هي جزء

من أجزاء (علم الكلام)، وجزء مما اختلف فيه المختلفون من المتكلمين، وكتب عبد القاهر: (دلائل الإعجاز) و (أسرار البلاغة)، وبعض رسائله، وكلُّها تدل على أنه لم يفتِّه شيء مما قاله الجاحظ، وأبو عبد الله الواسطي، والرَّمَّاني، والخطَّابي، والباقلاني، وعبد الجبار، فوقف على ألفاظ الجاحظ الموحية المثيرة، والتي كان ينعت بها ما يجده في نفسه من تذوق القرآن، واستوعب ما زاد عليه فيها الباقلاني، وهو يحاول أن يكشف الإبهام عن معنى (البلاغة).

وأنا أرجح أن الذي أرق عبد القاهر دهرًا طويلًا منذ أول اشتغاله بالعلم والأدب هو ما قاله الخطَّابي في افتتاح كتابه (انظر ص: ٨٧ - ٨٩)، حيث ذكر أن (البلاغة) معنى مُبْهِمٌ غامضٌ، وأن المتكلمين، حين طلبوا وجه (إعجاز القرآن) اقترحوا أن يكون وجهُ الإعجاز هو (البلاغة)، وأن الناس قد جروا في تسليم هذه الصفة للقرآن على نوع من التقليد وضربٍ من غلبة الظن، وأنهم عاجزون عن تحديدها وتصويرها، وأن الكلامين يتفاضلان بالعدوِّية في السمع وبهشاشة النفس له، ولكنهم لا يقفون على العلة التي تجعل لأحدهما على الآخر فضيلة ومزية.

فلما جاء القاضي عبد الجبار، رأس المعتزلة، حاول كشف الإبهام والغموض عن معنى (البلاغة) و (الفصاحة)، وسلك في

ذلك مسلك المتكلمين، فطرح (الكلام) صدأه على ما كتب، ولم يستطع أن يزيد على ضروب من تشقيق الكلام، تجعل البلاغة والفصاحة ضرباً من الكلام، لا ذروة من ذرى البيان. وظاهر أن أقوال القاضي عبد الجبار، كانت مما دخل في نزاع المتكلمين وغير المتكلمين من الأدب والشعر، وأن عبد القاهر كان قد شارك الأشاعرة، منذ نشأته، في حوارهم وحديثهم وجدالهم وفي كل ما نازعوا فيه المعتزلة، إلا أنه كان في خلال ذلك كله أديباً متذوقاً، قبل أن يكون أشعرياً متكلماً. ومع الأيام، ظهر له قدر الفساد الذي أحدثه القاضي عبد الجبار، ببعض ما قاله فيما حاول به كشف الإبهام عن (الفصاحة والبلاغة). هذا، فضلاً عما وصفه قبل من فساد الناس، وفساد أقوالهم في الشعر والنحو. وقد هيّج هذا كله تذوقه الذي كان يزداد على الأيام صقلاً، فعزم عندئذٍ على أن يقول قولاً في كشف هذا الإبهام الذي يكتنف (الفصاحة والبلاغة). وقد دل عبد القاهر نفسه على صحة ما قلت، في أول كتابه (دلائل الإعجاز) (ص ٣٤ - ٣٨) حيث يقول، في فصل مهم جداً :

١ - ولم أزل منذ خدمت العلم أنظر فيما قاله العلماء في معنى الفصاحة والبلاغة، والبيان والبراعة، وفي بيان المغزى من

هذه العبارات وتفسير المراد بها، فأجد بعض ذلك كالرمز والإيماء والإشارة في خفاء، وبعضه كالتنبيه على مكان الخبيء ليطلب، وموضع الدفين ليبحث عنه ويخرج، وكما يفتح لك الطريق إلى المطلوب لتسلكه، وتوضع لك القاعدة لتبنى عليها. ووجدت المعول على أن ههنا نظامًا وترتيبًا، وتأليفًا وتركيبًا، وصياغةً وتصويرًا، ونسجًا وتجديرًا = وأن سبيل هذه المعاني في الكلام الذي هي مجازٌ فيه، سبيلها في الأشياء التي هي حقيقة فيها (...)، ثم يقول (ص ٣٠ - ٣١)

٢- ولا يكفي في علم الفصاحة أن تنصب لها قياسًا ما، وأن تصفها وصفًا مجملًا، وتقول فيها قولاً مرسلًا، بل لا تكون من معرفتها في شئ حتى تُفصل القول وتُحصّل، وتضع اليد على الخصائص التي تعرض في نظم الكلم، وتعدّها واحدةً واحدةً، وتسميها شيئًا شيئًا، وتكون معرفتك معرفة الصنّع الحاذق الذي يعلم علم كل خيط من الإبريسم الذي في الديباج، وكل قطعة من القطع المنجورة في الباب المقطّع، وكل أجرّة من الأجرّ في البناء البديع).

فالفقرة الأولى دالة على أن كلام الخطابي في إبهام (البلاغة) كان يشغله ويهمه، والفقرة الثانية تشير إلى محاولة

القاضي عبد الجبار في كشف الإبهام، وما في محاولته من العيب، فضلا عن بعض أقواله الفاسدة التي أشار إليها عبد القاهر في مواضع من كتابه غير هذا الموضع. بيد أن الذي يُهمُّني هنا أن أشير إليه، هو هذه الألفاظ الثمانية التي وضعتُ تحتها خطأ في الفقرة الأولى. فهذه الألفاظ، كما ترى، هي نفس ألفاظ أبي عثمان الجاحظ. ومن بعده القاضي الباقلاني. كان أبو عثمان ينعت بها وبأخوات لها ما كان يجده في نفسه من تذوق هذا القرآن العظيم، حين أفرغته النتائج التي أفضت إليها (الصِّرفَة) من سلب القرآن كل فضيلة، [كما بينت ذلك آنفا ص: ٦٥ - ٦٩] وهي أيضا ألفاظ الباقلاني، مع أخوات لها، كان يفرع إليها الباقلاني، حين يخامر قلبه الشك في إبهام هذه (البلاغة) ما هي؟ ولا يجد عند نفسه قدرة على الإبانة عنها، فيلجأ هو أيضا عند ذلك إلى نعت ما يجد في نفسه من تذوق القرآن، بألفاظ الجاحظ، وبألفاظ أخرى استخرجها ببيانه وبراعته.

وقد قلت آنفا إن أبا عثمان قد استطاع ببراعته وبيانه وتدقيقه، أن يستخرج من أعماق اللغة نعوتا لأقصى ما يجده في أغوار نفسه من أثر تذوق القرآن العظيم، فجاءته ألفاظ عظيمة الوقع في النفوس بإبهامها واستثارتها، وكان يبشها في سيا كلامه

حاملة صدقه وإخلاصه وتدفقه ونفاذ تذوقه، فتألفت تألقاً يشير
كوامن الخواطر. من مثل قوله (نظم القرآن، وبديع تركيبه،
وغريب تأليفه....) = فالذي لا أشك فيه أن هذه الألفاظ في كلام
الجاحظ، ومن بعده الباقلاني، هي التي ظلت تقع في نفس عبد
القاهر موقعا بعد موقع، كما وصفها في الفقرة (١)، بأنها كالرمز
الإيماء والتنبية على مكان الخيء. إلى آخر ما قال الشيخ الإمام،
وصدق. وكان عليه أن يحل رموز هذه الألفاظ. ويكشف عن
خباياها، ويذهب المذاهب مع كل إيماء وإشارة، فكانت تستجيب
له مفاتها، شيئاً بعد شيء، وذلك لأنها كانت تحمل صدق النعت
ودقته، عن إحساس مُرَهَفٍ صادق، ببيان هذا القرآن العظيم. ومن
تأمل هذه النعوت الصادقة الدقيقة، المُعَبِّرة عن أقصى الحقيقة في
نفس أبي عثمان، وقد وصف هو نفسه ما بذله من الجهد فيها،
فيما سلف [ص: ٦٩ - ٧٦] مِنْ تَأْمُلِهَا استخرج عبد القاهر أصول
كتابه العظيم: (أسرار البلاغة) و (دلائل الإعجاز)، وانفرد
وحده في تاريخ آداب الأمم جميعاً بتأسيس علم لم يسبقه إلى مثله
أحد، ولم يزل ما يتضمنه هذان الكتابان سامياً سامقاً تَعْيِي أقلام
الدارسين والكتاب عن بلوغ بعض ذراه الشائخة.

لما نشر الأستاذ (عبد الله محمد الصديق الغماري) كتاب
(بيان إعجاز القرآن) للإمام أبي سليمان الخطابي، وذلك في سنة
(١٣٧٢ من الهجرة ١٩٥٣ م) كان أمراً غريباً جداً عندي تنبّه هذا
الإمام الجليل (لتعذر معرفة وجه إعجاز القرآن، ومعرفة الأمر في
الوقوف على كلفيته). [انظر ما سلف ص: ٩٢، ٩٣] وهذه كلمة لا
يقولها، بهذا الوضوح، إلا عالم متمكن قد فحص أقوال من سبق
فحصاً دقيقاً، فلم يجد في شيء منها مقتناً ولا رضىً. ولكن كان
أغربَ منه عندي أنه حين ذكر إسنادهم وجه الإعجاز إلى
(البلاغة)، = وهو الوجه الذي اعتمد عليه أكثر علمه أهل النظر
في زمانه وبعد زمانه إلى اليوم = صرّح تصريحاً لا غموض فيه
بحيرته في مفهوم لفظ (البلاغة) فقال: (وفى كلفيتها يعرض لهم
الإشكال، ويصعب عليهم منه الانفصال)، فدل بهذا أيضاً على أن
أمر (البلاغة) عنده، قد نال قسطاً وافراً من التأمل، فلم ينته فيه
إلى رأى يجلب الطمأنينة إليه، بل وجده أمراً مُشكِلاً يصعب إزالة
إشكاله. ثم زاد الأمر بياناً، ودلّنا على أنه كان يُسائل أصحاب هذا
القول في (البلاغة) فقال هذه المقالة الصريحة الواضحة الغريبة:

(ووجدت عامة أهل هذه المقالة (أي القائلين بإعجاز القرآن من جهة البلاغة)، قد جرّوا في تسليم هذه الصفة للقرآن على نوع من التقليد، وضرب من غلبة الظن، دون التحقيق له وإحاطة العلم به. ولذلك صاروا إذا سئلوا عن تحديد هذه البلاغة، التي اختص بها القرآن الكريم، الفائقة وصفها سائر البلاغات، وعن المعنى الذي يتميز به عن سائر أنواع الكلام الموصوف بالبلاغة، قالوا: إنه لا يمكننا تصويره ولا تحديده بأمر ظاهر نعلم به مباحية القرآن غيره من الكلام، وإنما يعرفه العالمون به عند سماعه ضرباً من المعرفة لا يمكن تحديده، وأحالوا على سائر أجناس الكلام التي يقع فيها التفاضل، فتقع في نفوس العلماء به عند سماعه معرفة ذلك، ويتميز في أفهامهم قبيل الفاضل من المفضل منه). [انظر ما سلف ٨٣] فيبين بهذه الكلمات عن أن مفهوم (البلاغة) لعده كان غامضاً كل الغموض، مبهماً كل الإبهام، وأن سحر لفظ (البلاغة) بهذا الإبهام، كان يطغى عليهم طغياناً مستفيضاً، وسبب ذلك كما قلت آنفاً [ص : ٨١]، هو (حضور التذوق في الأنفس حضوراً واحداً حياً في تذوق نظم القرآن وتأليفه، وفي تذوق نظم الشعر = وكان لهذا الإبهام سحر يربط هذا التذوق، بلفظ له في نفسه دلالة مغرية، توهم المرء بأن معناه يبين، والحقيقة أن معناه ليس يبين ولا محدود. وإذن فالأمر كله مردود إلى (التذوق)

لا غيرُ، وقد كشف الخطابي هذا المعنى كشفًا كاملاً في تمام كلامه حيث قال: (قالوا: وقد يخفى سببه عند البحث، ويظهر أثره في النفس، حتى لا يلتبس على ذوى العلم والمعرفة به. قالوا: وقد توجد لبعض الكلام عذوبة في السمع، وهشاشة في النفس، لا يوجد مثلها لغيره منه، والكلامان معاً فصيحان، ثم لا يوقف لشيء من ذلك على علة. قال أبو سليمان الخطابي، قلت: وهذا لا يقع في مثل هذا العلم، ولا يشفى من داء الجهل، وإنما هو إشكالٌ أحيل إلى إبهام). وهذا واضحٌ جداً، ودالٌّ على أن الأمر كله مفوض إلى (التذوق) لا غير، وأن نسبة الأمر في الإعجاز إلى (البلاغة) إشكالٌ أحيل إلى إبهام. ومعنى ذلك أن كل ما كان يقال على عهده في شأن الإعجاز، وأنَّ مرده إلى (البلاغة) المبهمة الغامضة = شيء لا يستقيم، وهو غير مُقنع، وأنه لا يستطيع هو ولا غيره من أهل زمانه أن يطمئن إلى هذا الوجه من الإعجاز اطمئناناً يعين على الاقتناع، ويشفى من داء الجهل، بالوجه الذي كان به القرآن العظيم (معجزاً) على مذهب المتكلمين الذين وضعوا لفظ (الإعجاز) ولفظ (المُعجز) و(المعجزة) في نطاق لفظ (التحدي)، وما زعموه من أن المشركين من العرب قد (عجزوا) عن مثل القرآن العظيم. [انظر ما سلف من القول في "الإعجاز"، و"التحدي"] .

وإذا كنت أنا بعد عشرة قرون (توفى الخطابي سنة ٣٨٨هـ).
 قد وقفت عند كلام أبي سليمان موقف المستغرب المتأمل، فلا
 أشك أن عبد القاهر (المتوفى سنة ٤٧١هـ) حين قرأ هذا الكلام
 الواضح الدال على إبهام لفظ (البلاغة). وإسناد إعجاز القرآن
 إليها، كان يومئذ أشد استغراباً وتأملاً، وأن هذه المقالة التي قالها
 أبو سليمان الخطابي كانت تمشي معه إذا مشى، وتبيت معه إذا نام،
 وأنه كان صادقاً كل الصدق حين قال: (ولم أزل منذ خدمت العلم
 أنظر فيما قاله العلماء في معنى الفصاحة والبلاغة، والبيان
 والبراعة، وفي بيان المغزى من هذه العبارات، وفي تفسير المراد
 بها، فأجدُ بعض ذلك كالرَّمز والإيماء والإشارة في خفيه، وبعضه
 كالتنبيه على مكان الخبيئ لِيُطْلَب، وموضع الدفين لِيُبحث عنه
 فيُخْرَج... ووجدت المعول على أن ههنا نظماً وترتیباً، وتأليفاً،
 وتركيباً، وصياغة، وتصويراً، ونسجاً، وتجبيراً). [انظر ما سلف
 ص: ٩٤]

فهذه الألفاظ الثمانية التي ذكرها، وتحكى قصة عبد القاهر
 كلها، وهو يراوغ هذا الإبهام المحيط بلفظ (البلاغة) وما ذكره من
 تقدمه من وجوه البلاغة التي يعهدونها، كالذي مر آنفاً من أقسام
 البلاغة العشرة عند الرُّمَّاني [انظر ص: ٨٦] وهى: (الإيجاز،

والاستعارة، والتشبيه، والتلاؤم، والفواصل، والتجانس،
 والتصريف، والتضمين، والمبالغة، وحسن البيان) = وما كان من
 استقصار الباقلائي هذه الغاية]، وأن من قَدَّر البلاغة في هذه
 الأوجه العشرة (لا يعرف في البلاغة إلا القليل، ولا يَفْطِنُ منها
 إلا لليسير)، ثم ما جاء في كتابه (إعجاز القرآن) من وجوه البلاغة
 التي سماها (البديع) [إعجاز القرآن ١٦٠ - ١٧٠]، ثم ختمها بقوله :
 (وقد قدر مُقدِّرون أنه يمكن استفادة إعجاز القرآن من هذه
 الأبواب التي نقلناها، وأن ذلك مما يمكن الاستدلال به عليه. وليس
 ذلك كذلك عندنا، لأن هذه الوجوه، إذا وقع التنبيه عليها، أمكن
 التوصلُ إليها بالتدريب والتعود والتصنع لها، وذلك كالشعر
 الذي إذا عرف الإنسان طريقه، صحَّ منه التعمُّلُ له وأمكنه نظمُه.
 والوجوه التي تقول إن إعجاز القرآن يمكن أن يُعَلِّمَ منها، فليس مما
 يقدرُ البشرُ على التصنُّع له والتوصل إليه بحال [إعجاز
 القرآن: ١٦٢]، ولكنه لم يخرج من جميع نقده لأقوال من تقدَّمه ولا
 من محاولته كشف الإبهام عن معنى (البلاغة)، إلا بأقوال مُحَصَّلُها
 هي أيضاً أنها (إشكال أحيل إلى إبهام) كما قال الخطابي. فإنه لما
 فرغ من ذكر وجوه (البلاغة) كما هي عندهم يومئذ قال : (وإنما
 ننكر أن يقول قائل إن بعض هذه الوجوه بانفرادها قد حصل فيها

الإعجاز، من غير أن يقارنه ما يتصل به من الكلام ويُقضى إليه، مثل ما يقول: إن ما أقسم به وحده مُعْجَزٌ، وإن التشبيه مُعْجَزٌ، وإن التجنيس مُعْجَزٌ. أما الآية التي فيها ذكر التشبيه، فإن ادعى إعجازها لألفاظها ونظمها وتأليفها، فإني لا أدفع ذلك بل أصححه، ولكن لا أدعى إعجازها لموضع التشبيه. [إعجاز القرآن: ٤١٨]، ثم قال بعقب ذلك، [إعجاز القرآن: ٤١٨-٤٢٠]: (ومن تلك الوجوه ما قد بينا أن الإعجاز يتعلق به كالتبيان. فالقرآن أعلى منازل البيان، وأعلى مراتبه مما جمع وجوه الحسن وأسبابه، وطرقه وأبوابه: من تعديل النظم وسلامته، وحسنه وبهجته، وحسن موقعه في السمع، وسهولته على اللسان، ووقوعه في النفس موقع القبول: وتصوره تصوّر المشاهد، وتشكله على جهته حتى يحل محل البرهان ودلالة التأليف، مما لا ينحصر حسناً وبهجة، وسنّة ورفعة. وإذا علا الكلام في نفسه، كان له من الوقع في القلوب، والتمكن في النفوس، ما يذهل ويُبهِج، ويُقَلِّق ويؤَنِّس، ويُطَمِّع ويؤَيِّس، ويَضْحِك ويُبْكِي، ويُحْزِن ويُفْرِح، وَيُسْكِن وَيُزَعِّج، وَيُسْجِي وَيُطْرِب، ويهز الأعطاف، ويستميل نحوه الأسماع، ويورث الأريحية والعزة، وقد يبعث على بذل المهج والأموال شجاعة وجوداً، ويرمى السامع من وراء رأيه مرمى

بعيداً، وله مسالك في النفوس لطيفة، ومداخل إلى القلوب دقيقة. وبحسب ما يترتب في نظمته، ويتنزل في موقعه، ويجرى على سمت مطلعه ومقطعه، يكون عجيب تأثيراته، وبديع مقتضياته. وكذلك على حسب مصادره، يتصور وجوه موارده. وقد ينبىء الكلام عن محل صاحبه، ويدل على مكان متكلمه، وينبئ على عظيم شأن أهله، وعلى علو محله. وهذا الذي نقلته لك، هو الذي أشرت إليه آنفاً من أن القاضى كان متكلماً ولكنه كان ذواقاً، وبصنعة الكلام كان يمارس إزالة الإبهام أو يحاولها، ولكنه كان يُفضى إلى سد منيع، فيفر إلى التدوق، وإلى نعت ما يحده في نفسه من تذوق القرآن العظيم، متبعا سنة الشيخ أبى عثمان الجاحظ التي أشرت إليها مراراً.

فالذي لا ريب فيه عندي أن عبد القاهر قد أحسن بهذا كله واضحاً جلياً، فضمن أربعة ألفاظ من هذه الثمانية التي ذكرتها آنفاً (في الفقرة الأولى من كلامه)، وهذه الألفاظ هي: (الصياغة، والتصوير، والنسج والتحرير) = ضمنها تاريخ تأمله لهذا الخليط من الألفاظ، كالاستعارة والتشبيه والتلاؤم، إلى آخر وجوه البلاغة التي سماها الباقلانى (البديع)، فحاول محاولته الأولى في كشف الإبهام عن هذه الأربعة، الدالة على الأبواب التي تناولها في كتابه،

وهى التشبيه والتمثيل والاستعارة والحقيقة والمجاز، وهى أبواب (علم البيان) كما سماه البلاغيون من بعده، والتي جله ذكرها في كتب من تقدّمه من أهل العلم. ومدار هذه الفصول جميعاً على (الألفاظ) التي هي عنده (خُدُم المعاني، والمتصرّفة في حكمها)، [وانظر دلائل الإعجاز ص: ٣٠٩]. ولست هنا بصدد شرح ما أراده عبد القاهر أو ذكر أقواله، ولكنى أردتُ الدلالة على أن هذا (الإبهام) الذي كان يحيط بأبواب (البلاغة) عند مَنْ تقدّمه، قد ألقى عليه عبد القاهر ضوءاً كاشفاً لأكثر مبهماتهِ، وجعل الأمر في هذه الأشياء المعتمدة على (اللفظ) مصروفاً كلّهُ إلى المعاني التي تحكمها في باب التشبيه أو الاستعارة أو المجاز. وقد كشف عن ذلك بعض الكشف في أول كتابه [أسرار البلاغة: ٢٠] حيث يقول: (وأما التطبيق والاستعارة وسائر أقسام البديع، فلا شبهة أن الحسن والقبح لا يعترض الكلام بهما إلا من جهة المعاني خاصة، من غير أن يكون للألفاظ في ذلك نصيب، أو يكون لها في التحسين، أو خلاف التحسين، تصعيدٌ وتصويبٌ). وقد كان عملُ عبد القاهر في هذا الكتاب، (أسرار البلاغة)، هو تحليل الألفاظ المتصرّفة بأمر المعاني التي تحكمها، والبيان عن وجه حُسْنِها وقبحها، أو خطئها وصوابها، ومراتبها من العُلُوّ والنزول، غير

مقطوعة عن أصلها الذي تنتمي إليه، وهو أنها واقعة في خلال كلام ذي نظم وتأليف وتركيب. وبذلك وضع لهذه الأمة العربية أول كتاب في (تحليل اللغة)، لم يكن له شبيه من قبل في لسان من الألسنة، وكل من جاء من بعده فهو عالة عليه فيه. والحديث عن كتاب (أسرار البلاغة) يحتاج إلى فصل قائم بذاته، لا محل له هنا، وإنما هي الإشارة إليه لا غير.

وأما الألفاظ الأربعة الأخرى، وهى: (النظم، والترتيب، والتأليف، والتركيب) فهي كلها متعلقة بالجملة، ومعنى (الجملة) أنها الكلام المركب من الأسماء والأفعال والحروف، للدلالة على المعاني التي يريد بها المتكلم. ولا بد لهذا التركيب أن يكون بعض أجزائه متعلقاً ببعض. وقد تكفل بدارسة وجوه هذا التركيب ما نسميه (علم النحو)، والغرض منه هو ضبط صحة تعلق الكلم بعضها ببعض. بيد أن (علم النحو) يقف عند حصر هذا التعلق للدلالة على معانى التركيب، من حيث هو فاعل أو مفعول أو مبتدأ أو خبر أو حال أو نعت أو عطف أو تمييز أو استثناء، ثم النفى والاستفهام والجزاء والشرط، وما يوجبه ذلك التعلق من الأحكام. وكان (علم النحو) على عهد عبد القاهر، قد بلغ غاية من الدقة والوضوح والاستيعاب، منذ كان الخليل وسيبويه، إلى أن

احتفل به الأئمة من علمائه في عهده وقُبِّلَ عهده، كأبي على
 الفارسي، وأبي الفتح بن جنى. كان عبد القاهر نفسه ممن أعطى
 (النحو) نصيبه من التمهيد والتأمل، حين ألف كتابه الكبير
 (المغنى) الذي شرح به (كتاب الإيضاح) لأبي على الفارسي، في
 ثلاثين مجلداً، فاكتسب بفنون تركيب الجمل خبرة مرهقة، ولكنها
 لا تزيد على أن تكون دقة في الحصر، ومهارة فائقة في التناظر
 والتشابه، ومعاودة لصقل (النحو) صقلاً يزيل عنه الصدأ حتى
 يتلأل. وهذا أمر شاركه فيه غيره من أئمة هذا العلم الجليل الذي
 لا نظير له في جميع ألسنة البشر منذ كانوا إلى يوم الناس هذا، وإن
 شارك كل لسان في بعض معناه، لأن لكل لساناً من الألسنة (نحواً)
 من جنسه، ولكن أين الثرى من الثريا؟ كما يقولون، وإن جهل
 هذا أدعياء أهل زماننا جهلاً يُكتب به عليهم التقصير في الفهم، لا
 البصر بالحقائق، وإن ادَّعَوْا ذلك بالسنتهم، فإنها دَعْوَى كاذبة، لا
 أكثر ولا أقل.

كانت هذه الدقة المذهلة في الحصر والاستيعاب والتقسيم
 والتبويب، والتي قام بعينها الأكبر إماما (النحو) : الخليل بن أحمد،
 وسيبويه، ثم ما جاء على آثارهما من تفصيل واستدراك وتمحيص
 إلى عهد عبد القاهر = كان ذلك كله يحمل في ثناياه حُبّاً مستوراً

دفيئاً لمن يبحث عنه ويخرجه، كما أشار إلى ذلك عبد القاهر نفسه، إلا أن الذي حرك عبد القاهر لم يكن هذا الخبء الدفين نفسه، بل كان شيئاً آخر جعله ينكشف له بغتة أن ههنا خبئاً دفيناً، وجوهرًا نفيساً مغموراً، ولكنه يلمع لمعاناً خاطفًا من وراء حُجُب (النحو) التي أسدلتها عليه طرائقه ومصطلحاته ومناهجه.

كان عبد القاهر، كما قلت، فقيهاً شافعيًا، ثم متكلمًا أشعريًا مغموسًا في قضايا (الكلام)، ولكنه كان قبل ذلك كله نفسًا ملهوفة بالبيان وبتذوق البيان، حيلة فُطرَ عليها، واكتسابًا صقلته صحبة فحول الشعر والأدب والنقد في زمانه، ومشاركته الصراع الدائر بين أهل الأدب في تفضيل شعر على شعر، وبيان على بيان. وكان جهده الذي بذله في كشط غاشية (الإبهام) عن وجه البلاغة، كما عرفها من قبله، في الاستعارة والتشبيه وما إليهما مما يتعلق باللفظ، كما أشرت إليه آنفًا = كان هذا الجهد غير مُقْنِع ولا كاف في أمر (إعجاز القرآن). وأدرك ذلك عبد القاهر إدراكًا واضحًا لا ريبه فيه، وبقي إبهام آخر، هو الذي أشار إليه أبو سليمان الخطابي أيضًا في كلامه = قائمًا، حيث يقول: (قالوا وقد يخفى سببه عند البحث، ويظهر أثره في النفس، حتى لا يلتبس على ذوى العلم والمعرفة به. قالوا: وقد توجد لبعض الكلام عُدُوبة في السمع، وهشاشة في النفس لا يوجد مثلها لغيره

منه، والكلامان معاً فصيحان، ثم لا يوقف لشئ من ذلك على
علة).

فلما استحرَّ جدال المتكلمين، جله المعتزلي قاضي القضية
عبد الجبار، يحاول كشف الإبهام عن البلاغة من وجه آخر غير
الذي قال فيه الناس مِنْ قَبْلِهِ، فقال: [المغنى ١٦: ١٩٩]، وما بعدها:
(اعلم أن الفصاحة لا تظهر في أفراد الكلام، وإنما تظهر في الكلام
بالضم على طريقة مخصوصة، ولا بد مع الضم من أن يكون لكل
كلمة صفة، وقد يحوز في هذه الصفة أن تكون بالمواضعة التي
تتناول الضم = وقد تكون بالإعراب الذي له مدخل فيه = وقد
تكون بالموقع، لأنه ليس لهذه الأقسام الثلاثة رابع... فإن قال: فقد
قلْتُم في أن جملة ما يدخل في الفصاحة حُسْنُ المعنى، فهلاً
اعتبرتموه؟ قيل له: إن المعاني، وإن كان لا بُدَّ منها، فلا تظهر فيها
المزية، وإن كانت تظهر في الكلام لأجلها... على أنا نعلم أن
المعاني لا يقع فيها تَرَايُدٌ، فإذاً يجب أن يكون الذي يُعْتَبَرُ التزايد
عند الألفاظ التي يُعَبَّرُ بها عنها، علي ما ذكرناه. فإذا صحت هذه
الجملة، فالذي به تظهر المزية، ليس إلا الإبدال الذي يختص به
الكلمات، أو التقدم أو التأخر الذي يختص بالموقع، أو الحركات
التي تختص بالإعراب، فبذلك تقع المباينة). وكان في أكثر كلام

القاضى المعتزلى بعد ذلك غثاءً وصدأً وتبيّسُ، مردّها جميعاً إلى طبيعة (التكلم) نفسه، أولاً وأخيراً!

وقد أتى القاضى المعتزلى على جميع الوجوه التي تؤدي إلى ما يريده من محاولته كشف الإبهام عن (البلاغة)، ولكنّ الذي أطال فيه، لا يكاد يغنى شيئاً، بل جاء فيه بأفات كثيرة البلايا، لأنه كان يتحرك في ميدان (علم الكلام) المحدود بمحدود مذهب الاعتزال الذي ينتمى إليه، ومع ذلك، فأنا أظن أن عبد القاهر قد استفاد من تحليل قاضى القضية فائدة لا تقدر، لأنه بتذوقه للبيان، وبتمكنه من (النحو) الذي وقف على خفاياه، قد استطاع أن يكشف زيف أكثر كلام قاضى القضية. وفى خلال ذلك انتبه بغتة إلى ما افتتحه أبو عثمان الجاحظ من نعت تذوق القرآن العظيم في مواضع كثيرة من كتبه، ولا سيما كتاب (الاحتجاج لنظم القرآن) وإلى ما تبعه فيه القاضى الباقلانى في كتابه (إعجاز القرآن) كما بينت ذلك آنفاً، وذلك نحو قول أبى عثمان : (لأن رجلاً من العرب لو قرأ على رجل من خطبائهم وبلغائهم سورة واحدة، طويلة أو قصيرة، لتبين له في نظامها ومخرجها، وفي لفظها وطبعها، أنه عاجز عن مثلها... ولو أراد أنطق الناس أن يؤلف من هذا الضرب سورة واحدة، طويلة أو قصيرة. على نظم القرآن،

وطبيعته وتأليفه، مخرجه، لما قدر عليه)، ثم تسميته كتابه (الاحتجاج
 لنظم القرآن، وغريب تأليفه، وبديع تركيبه) = ثم ما أمته القاضي
 الباقلاني فيما سلف. وهذا التنبيه المفاجئ للألفاظ التي نعت بها
 تذوق القرآن العظيم، أوقف عبد القاهر على أربعة ألفاظ منها،
 وهى: (النظم، والترتيب، والتأليف، والتركيب)، فرآها جميعاً تدلُّ
 على إحساس المتذوق بينه الحمل في القرآن العظيم وتركيبها
 [انظر ما سلف ص: ٩٤]، أي بوجوه (النحو) فسأل نفسه هذا
 السؤال الحاسم الواضح المُفَصِّل الذي أثبتته في مدخل كتابه
 (دلائل الإعجاز)، (ص: ٦)، قال: (ما جوابنا لخصم يقول لنا: إذا
 كانت هذه الأمور وهذه الوجوه من التعلُّق (يعنى التركيب
 النحوى للغة) = التي هي محصول النظم = موجودة على حقائقها
 وعلى الصحة، وكما ينبغى، في منشور كلام العرب ومنظومه... فما
 هذا الذي تجدد بالقرآن من عظيم المزية، وباهر الفضل، والعجيب
 من الرصف، حتى أعجز الخلق قاطبة؟.. أيلزمنا أن نحيب هذا
 الخصم عن سؤاله، ونرده عن ضلاله، وأن نطبِّئ لدائه...؟ فإن كان
 ذلك يلزمنا، فينبغى لكل ذى دين وعقل أن ينظر في الكتاب الذي
 وضعناه (يعنى كتاب دلائل الإعجاز)، ويستقصى التأمل لما
 أودعناه).

ثم ختم كتابه بقوله (دلائل الإعجاز ٣٧٧، ٣٧٨) : (ما أظن بك = أيها القارئ لكتابنا، إن كنت وقيته حقه من النظر، وتدبرته حق التدبر = إلا أنك قد علمت علماً أبى أن يكون للشك فيه نصيب، وللتوقف عنه مذهب، أن ليس النظم شيئاً إلا توخى معانى النحو وأحكامه ووجوهه، وفروقه فيما بين معانى الكلم... فإذا ثبت الآن أن لاشك ولا مريبة في أن ليس النظم شيئاً غير توخى معانى النحو وأحكامه فيما بين معانى الكلم، ثبت من ذلك أن طالب دليل الإعجاز من نظم القرآن، إذا هو لم يطلبه في معانى النحو وأحكامه ووجوهه وفروقه ولم يعلم أنها معدته ومعائه (أي مبلته وموطنه)، وموضعه ومكانه وأنه لا مستتبط له سواها، وأن لا وجه لطلبه فيما عداها = غار نفسه بالكاذب من الطمع، ومسلم لها إلى الخدع = وإنه إن أبى أن يكون فيها، كان قد أبى أن يكون القرآن معجزاً بنظمه، ولزمه أن يثبت شيئاً آخر يكون معجزاً به، وأن يلحق بأصحاب الصرفة، فيدفع الإعجاز من أصله).

وقد بلغ عبد القاهر أعلى الذرى في القدرة على كشف إبهام (البلاغة) من هذا الوجه الذي كان أول من تنبه إلى حقيقته، بفضل طول تأمله في كلمات أبى سليمان الخطابى الذي أحسن في

المصارحة بأن أمر (البلاغة) أمر مُبْهِمٌ، ثم بطول تأنيبه في استنكناه
نعوت تذوق القرآن العظيم، التي نعت بها أبو عثمان الجاحظ
خاصة، والباقلاني من بعده، ما وجدا من هذا التذوق. وكانت
كلمات الجاحظ أشدَّهن تأثيراً، وأوقعُهنَّ على حقيقة التذوق،
وأروعهن استشارة وإيحاء. والذي فعله عبد القاهر في كتابه (دلائل
الإعجاز) هو أول تحليل للغة، من حيث هي تركيبٌ يحتمل ألواناً
من وجوه الأوضاع، ودلالة هذه الأوضاع على المعاني المستورة التي
يحملها كل تركيب، ومزِيَّة كل تركيب في اشتماله على وجوه
(البيان) القائمة في نفس المبين عنها. وبهذا الكتاب، وصنوه
(كتاب أسرار البلاغة)، أسس عبدي القاهر (علم تحليل البيان
الإنساني كله)، لا في اللسان العربي وحده، بل في جميع ألسنة
البشر. وضع عبد القاهر هذا الأساس، فلم يسبقه إليه سابق، ولا
لحقه من بعده لاحقٌ في لسان العرب، ولا غير لسان العرب.

وإذا كان عبد القاهر، في تدقيقه وفي تدافع المعاني في صدره،
قد اطمأن اطمئناناً ظاهراً إلى أنه قد كشف الإبهام كشفاً عن معنى
(البلاغة)، ثم عن وجه إعجاز القرآن، بما وضع من هذا العلم
الجليل = فإنني أراه قد نصَّبَ لنا إبهاماً آخر، سأحدثك عنه بعد
قليل. ذكر عبد القاهر في صدر كتابه [ص: ٢٨، ٢٩] ما حمّله على

إدامة النظر في معنى (الفصاحة والبلاغة، والبيان والبراعة)، فنزح إلى بيان إشكال ما أشكل، وإلى حل ما انعقد، وإلى الكشف عما خفى من صفاتها، ورام أن يضع القاعدة التي يبنى عليها هذا العلم، فقال: (ص ٢٩): (ووجدت المعول على أن ههنا نظماً وترتيباً، وتأليفاً وتركيباً، وصياغةً وتصويراً، ونسجاً وتخييراً = وأن سبيل هذه المعاني في الكلام الذي هي مجاز فيه، سبيلها في الأشياء التي هي حقيقة فيها = وأنه كما يفضل هناك النظمُ النظم، والتأليفُ التأليف، والنسجُ النسج، والصياغةُ الصياغة، ثم يَعْظُمُ الفضل، وتكثر المزية، حتى يفوق الشيء نظيره المجانس له درجات كثيرة، وحتى تتفاوت القيمُ التفاوت الشديد = كذلك يفضل بعض الكلام بعضاً، ويتقدم منه الشيء الشيء، ثم يزداد من فضله ذلك، ويرتقى منزلة فوق منزلة، ويعلو مرتبة بعد مرتبة، ويستأنف له غاية بعد غاية، حتى ينتهي إلى حيث تنقطع الأطماع، وتحسّرُ الظنون، وتسقط القوى، وتستوى الأقدام في العجز).

وكل ما قاله عبد القاهر هنا حق، قد أجاد التدليل عليه في كتابيه، بتحليل بالغ الروعة والقوة والصدق، مُعْرِقٌ في القدرة على تذوق البيان، وعلى البيان عن هذا التذوق، إلا أنه ختم هذه المقالة بدعوى، لا هو استطاع البرهان عليها، ولا أحد غيره ممن جله

بعده، وذلك قوله : (حتى ينتهى إلى حيث تنقطع الأطماع، وتَحْسَرُ
الظنون، وتسقط القوى، وتستوى الأقدام في العجز؟ وهو بهذا
يشير إلى (إعجاز القرآن). لم يجد لنا عبد القاهر هذا الحدّ، ولا من
أين يبدأ هذا الافتراق بين الكلام المتفاوت درجة بعد درجة =
وبين الكلام الذي تنقطع دونه الأطماع وتَحْسَرُ الظنون، وتسقط
القوى وتستوي الأقدام في العجز؟ فإنما هذه صفات ونعوت لما في
نفسه من التذوق لهذا القرآن العظيم، لا تبعد كثيراً عن نعوت
تذوق الإمامين الجليلين أبى عثمان الجاحظ، وأبى بكر الباقلانى،
في حالة إبهام معنى (البلاغة)، قبل أن يبدأ هو في إمطة اللثام عن
هذا الإبهام بكتاييه الجليلين : (أسرار البلاغة) و (دلائل
الإعجاز). وظنى أن إمامنا عبد القاهر، كان يُجسِّسُ إحساساً
غامضاً = بعد الجهد المضنى الذي بذله في كشف إبهام (البلاغة)
من جميع أطرافها = بأنه قد بقى شئ غامضٌ مُبْهِمٌ هو عليه
مُشْرِفٌ بتذوقه لهذا القرآن العظيم. لم يجد عبد القاهر عندئذ مناصاً
من اللجوء إلى ما لجأ إليه أبو عثمان الجاحظ في تذوقه لهذا القرآن،
حين لم يجد (الصِّرفَةَ) مُغْنِيَةً غناءً مقنعاً، وأن نظم القرآن، وبيانه
وطبعه ومخرجه أجلُّ من أن يتردّد متردّد في شأنه، فنعت أبو عثمان
تذوقه نعتاً مثيراً موجياً بالفاظ تعب في استخراجها من أعماق

اللغة. فكذلك فعل عبد القاهر حين خامره هذا الإحساس الغامض المبهم، بعد أن استقصى جهده في كشف إبهام البلاغة، فاستحدث هو أيضاً هذه النعوت الموحية المثيرة : (حيث تنقطع الأطماع، وتَحَسَّرَ الظنون، وتسقط القوى، وتستوى الأقدام في العجز)، فهي أيضاً نعوت متذوق لشئ مبهم لم يبلغ الغاية في تفسير ما يحيط به من الإبهام.

وأنا أتوهم أيضاً أن هذا الأفق القصي المَغْلَفَ بالإبهام، كان يلوح لعبد القاهر من وراء نعوت الجاحظ المثيرة الموحية التي يقرأها في كتابه (الاحتجاج لنظم القرآن، وغريب تأليفه، وبديع تركيبه، وسلامته من الزيادة والنقصان)، ثم في غيره من كتب أبي عثمان. وذلك أني لاحظت آنفاً أن إمامنا عبد القاهر حين وضع كتابه (دلائل الإعجاز) كان قد فرغ من تأمل ألفاظ كثيرة مثيرة موحية في نعت القرآن العظيم، نعت بها أبو عثمان تذوقه لهذا القرآن، فاستخرج منها أربعة ألفاظٍ أدار عليها قوله في (دلائل الإعجاز). وهذه الألفاظ هي : (النظم، والتأليف، والتركيب، والترتيب)، ولكنه أغفل من ألفاظ أبي عثمان لفظين شديدي الغموض الداعى إلى الاستشارة، ولكنهما حافلان بالإيجاه أيضاً، وهما : (نظم القرآن وطبعه، وتأليفه ومخرجه)، ولذلك لا نجد في

كتاب عبد القاهر ذكراً أو تفسيراً (لطبّع القرآن ومخرجه)، ولا نجد
مسّ ما يشرّاه أو يوحّيان به من قريب أو بعيد، وبقيما، في تأمله
لفظين مُبْهِمَيْن حائرين في غمرة النور الساطع الذي انبثق عنه
فكره فكشف الإبهام المحيط بالألفاظ الثمانية (النظم، والتأليف،
والتركيب، والصياغة، والتصوير، والنسج، والتحجير)، كما أسلفت
بيانه [ص: ٩٤ وما بعدها] وأنا أحسُّ إحساساً غامرة، وأنا أقرأ
كتب عبد القاهر، أن هذين اللفظين: (الطبع، والمخرج)، كانا
يجولان في أقصى جسّه، وهو منطلق بأقصى جهده، لا يتوقّف ولا
يتلفّت، يفسر ألفاظ أبى عثمان الثمانية في كتابيه: (أسرار
البلاغة) و (دلائل الإعجاز)، ويعدّ ما تشره وتوحى به إعدادا بالغ
الروعة لاستخراج هذا العلم الجديد، الذي استهدف به تحليل
اللغة وتحليل البيان تحليلاً أفردّه في تاريخ اللغات كلّها بالسّبق
والتفوق. وبقي هذان اللفظان حائرين مُبْهِمَيْن غامضين يترددان
في بهرة النور الساطع، وهو دائب يتذوق القرآن، شاخصاً بجميع
نفسه إلى الأفق الأعلى الذي عنده القرآن العظيم. فلما عبّز عن
أن يستخرج منهما شيئاً يُعوّل عليه، لم يملك حيال هذا الإبهام، إلا
أن يلجأ إلى ما لجأ إليه أبو عثمان، فقال ينعت ما يحسّه من التذوق
المتعلق (بطبّع القرآن ومخرجه ومخرجه آياته): (تنقطع دونه

الأطماع، وتحسّرُ الظنون، وتسقطُ القوى، وتستوى الأقدام في العجز). فهذه هي المرتبة المنقطعة وحدها بعد (البلاغة، التي كشف إبهامها بكتاييه. مرتبة مستورة بالإبهام، لعلّها كانت قائمة في نفسه، ولكنه لم يطق الإبانة عنها، كما قال الشافعي رحمه الله، حين سُئل عن مسألة فقال: (أجد بيائها في قلبي، ولكن لا ينطلق به لساني!) ولكن حسب عبد القاهر ما أدرك من كشف غمّة الإبهام عن (البلاغة) بكتاييه الجليلين الفائقين.

وحسبي أنا، فيما أظن، ما قلته آنفاً! فإن الأمر أوسع سعة، وأعمق عمقا، وأبعد منالاً، من قدرة هذا الجهد الذي بذلته. وهو محتاج إلى تفصيل لا يتحمّله مثل هذا (المدخل) الذي أردت به تاريخ بعض ما وجدته، وأنا مغموسٌ في قضية (الشعر الجاهلي) وفي شأن (إعجاز القرآن) وقد جلت الأئمة بعد عبد القاهر، وبلغوا غاية البراعة والحدق في البيان عن (البلاغة)، وفي الزيادة على ما قاله شيخ البلاغة من وجوه مختلفات، ولكن لم يكن لأحد منهم مثل سجايا عبد القاهر في تذوق البيان، ولا في الإبانة عن وجه هذا التذوق. ولجميعهم فضلٌ باهر، ولكنه بان منهم بفضلٍ لا يدانيه فيه أحد، وبمزية لم يؤت مثلاً منهم أحد.

وَنَفْثَةُ مَصْدُورٍ، أَخْتَمَ بِهَا هَذَا التَّارِيخَ : أَنِ طَائِفَةٌ مِنْ
مُتَهَوِّرِي أَهْلِ زَمَانِنَا، وَهُوَ زَمَنُ التَّهَوُّرِ وَالثَّرَثَةِ، قَدْ أَوْغَلُوا إِيغَالًا
شَنِيعًا يَلْحَقُ بِالْعَبَثِ، فِي التَّهْوِينِ مِنْ شَأْنِ (النَّحْوِ) الَّذِي بَنَى
عَلَيْهِ عَبْدُ الْقَاهِرِ نَظْرَهُ فِي الْكَشِيفِ عَنْ إِبْهَامِ (الْبَلَاغَةِ) فَوَضَعَ
أَسَاسَ (عِلْمِ تَحْلِيلِ التَّرْكِيبِ اللَّغَوِيِّ)، تَحْلِيلًا يَبِينُ عَنْ دَرَجَاتِ
(الْبَيَانِ) الْإِنْسَانِي فِي جَمِيعِ لُغَاتِ الْبَشَرِ. وَعَنْ سِرِّ تَأْثِيرِ الْكَلَامِ
الْمُرَكَّبِ مِنَ الْأَلْفَاظِ، فِي نَفْسِ الْإِنْسَانِ الْمُتَذَوِّقِ لِهَذَا الْكَلَامِ، فَيَهْتَزُّ
لِبَعْضِهِ اهْتِرَازَ الْأَرِيحِيَّةِ، وَيَجِدُّ لَهُ مِنَ الْعَذُوبَةِ وَالْبَشَاشَةِ مَا يَحْمِلُهُ
عَلَى حِفْظِهِ وَتَرْدِيدِهِ، وَتَأْمُلُ جَمَالَهُ وَرُوعَتَهُ. وَجَهْلَةُ الدَّلْعَةِ إِلَى
(تَبْسِيطِ النَّحْوِ) : الْمَهْوَيْنِ مِنْ شَأْنِهِ، إِنَّمَا يَرِيدُونَهُ عِلْمًا فَارِعًا لَا
يَزِيدُ عَلَى أَنْ يَكُونَ مَجْرَدَ عَاصِمٍ مِنَ الْخَطَا فِي ضَبْطِ أَوَاخِرِ
الْكَلِمَاتِ رَفْعًا وَنَصْبًا وَجَرًّا وَجَزْمًا، لَا غَيْرَ! وَطَائِفَةٌ أُخْرَى مِنْ
الْأُدْبَاءِ وَالشُّعْرَاءِ الَّذِينَ هَبَطُوا إِلَى أَرْضِ الْأَدَبِ وَالشُّعْرِ وَهِيَ
خَوَاءٌ مُقْفَرَةٌ، هُمْ أَشَدُّ إِيغَالًا فِي الطَّعْنِ عَلَى (عِلْمِ الْبَلَاغَةِ) بِفُرْعِيهِ :
(عِلْمِ الْمَعَانِي) وَ (عِلْمِ الْبَيَانِ)، وَتَابَعَهُمَا (عِلْمُ الْبَدِيعِ)، وَهُمْ
أَيْضًا أَشَدُّ وَتَهْوِينًا لَشَأْنِ الْبَلَاغَةِ، وَأَبْلَغُ فِسْقًا وَخُرُوجًا عَنْ مَنَازِلِهَا
وَمِرَاتِعِهَا وَرِيَاضِهَا. ثُمَّ لَا يَدْرِي هَؤُلَاءِ الطَّاعِنُونَ مِنْ جَهْلَةِ زَمَانِنَا،
أَنَّهُمْ بِجَهْلِهِمْ يَقْتُلُونَ (الْبَيَانَ) فِي أَنْفُسِهِمْ وَفِي أَنْفُسِ الْبَشَرِ مِنْ
بَنَى جَلَدَتَهُمْ. وَ (الْبَيَانُ) هُوَ النِّعْمَةُ الَّتِي مَنَّ اللَّهُ بِهَا عَلَى الْإِنْسَانِ،

لِيُخْرِجَهُ مِنْ حِيزِ الْبَهَائِمِ وَالْعَجَمَاوَاتِ، فَهُمْ أَحْرَى أَنْ يَدْرِكُوا أَنَّهُمْ بِجَهْلِهِمْ وَتَهْوَرُهُمْ يَاقَتُونَ لُغَةً، يَسِّرَ اللَّهُ نَزُولَ الْقُرْآنِ بِلِسَانٍ أَهْلَهَا، وَهُمْ لَحْنُ الْعَرَبِ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ يَقُولُ لَنَا فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ: (لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ) [الأنبياء ١٠] وَأَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ لَا يَتِمَّ عَلَيْنَا وَعَلَيْهِمْ قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: (وَلَوْ أَتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ) [المؤمنون ٧]، وَذَلِكَ بَرَجُوعُ هَؤُلَاءِ الطَّاعِنِينَ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ، عَمَّا هُمْ الْيَوْمَ فِي شَأْنِهِ مُسْرِفُونَ، فَإِذَا فَعَلُوا، فَعَسَى أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ يَأْذَنُ اللَّهُ فِيهِ بِأَنْ يَنْشَأَ مِنَّا أَوْ مِنْ أَعْقَابِنَا مَنْ يُتِمُّ عَمَلَ عَبْدِ الْقَاهِرِ، وَيَكْشِفُ مَا عَجَزَ عَنْ بَيَانِهِ وَتَفْسِيرِهِ، فِي شَأْنِ (طَبْعِ الْقُرْآنِ وَمُخْرَجِهِ وَمُخْرَجِ آيَاتِهِ) وَيَوْمَئِذٍ يَتَغَيَّرُ الْقَوْلُ فِي مَسْأَلَةِ (إِعْجَازِ الْقُرْآنِ) تَغْيِيرًا يَخْرِجُنَا مِنْ هَذِهِ الْبَلْبَلَةِ الَّتِي اسْتَمَرَّ إِبْهَامُهَا قَرُونًا طَوِيلَةً كَمَا سَتَرَى.

١٩

كَانَ عَبْدُ الْقَاهِرِ، كَمَا عَلِمْتُ، مُتَكَلِّمًا مُحْكَمَ الْأَدَاةِ جَيِّدَ النَّظَرِ فِي (عِلْمِ الْكَلَامِ) وَكَانَ، كَمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ أَعْمَالُهُ الْبَاقِيَّةُ عِنْدَنَا، أَدِيبًا ذَوَاقَةً فَائِقَ التَّذَوُّقِ، مُشْرِقَ الْبَيَانِ عَنْ أَسْرَارِ تَذَوُّقِ الْكَلَامِ النَّبِيلِ الشَّرِيفِ الْبَاهِرِ. وَكَانَ أَيْضًا مُقْتَدِرًا كُلَّ الْقُدْرَةِ عَلَى تَحْلِيلِ

الكلام المركب من الألفاظ تحليلًا يكشف السر عن خباياه المثلثة = وعلى توسم آثار (العلائق) الظاهرة والخفية، كالأدوات والحروف، في ربطها بين هذه الألفاظ المنصوبة للدلالة على المعاني = وعلى استخراج نبئة ما يلحق معاني هذه (العلائق) من التغير اللطيف الدقيق، بتغير مواقعها من الكلم = وعلى استنباط الدفين المستور من المعاني المتحجبة، التي تكمن من وراء أوضاع هذه (العلائق) المتقلبة المعاني، التي هي بطبيعتها عماد الكلام المركب من الألفاظ. وكان قبل ذلك كله لغويًا خبيرًا بجواهر ألفاظ اللغة ومعانيها، بصيرًا بمذاق ألفاظها مفردة ومركبة، سميعًا لخفي جرس حروفها فذة وملثمة. مرهف الحس بتمكنها، مذاقًا وجرسًا ودلالة على المعاني، في مواقعها ومنازلها من الكلام المركب، أو بنو مذاقها وجرسها ودالتها على المعنى حيث وقعت في سياق التركيب. ولكن كان في إمامنا عبد القاهر عيبٌ عائقٌ له عن بلوغ الغايات في بيان ما يجده في نفسه وفي عقله وفي قلبه. وقد أدرك بعض القدماء من علمائنا هذا العيب في سنخ غريزته وطباعه، فقد ذكر القفطي (٥٦٨ - ٦٤٦ هـ) هذا العيب في ترجمة عبد القاهر، في كتابه (إنباه الرواة)، فقال: (كان، رحمه الله، ضيق العطن، أي قريب الملل)، يضيق صدره فجأة، فيكف عما هو

مُغْرَقٌ فِي تَأْمَلِهِ وَبَيَانِهِ). لَا يَسْتَوْفَى الْكَلَامَ عَلَى مَا يَذْكُرُهُ، مَعَ قُدْرَتِهِ عَلَى ذَلِكَ). وَصَدَقَ الْقَفْطِيُّ، فَهَذَا عَيْبٌ بَيْنَ تَلَوِّحِ آثَارِهِ فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ مِمَّا كُتِبَ وَخَاصَّةً فِي كِتَابَةِ (دَلَائِلِ الْإِعْجَازِ).

وَهَذَا الْعَيْبُ النَّاشِبُ فِي طَبِيعَتِهِ، أَمْسَكَ بِهِ إِمْسَاكًا مَثْبُطًا، حِينَ انْدَفَعَ دَاخِلًا مَدْخَلَهُ الرَّائِعَ، مَتَاهِبًا لِلْكَشْفِ عَنْ إِبْهَامِ (الْبَلَاغَةِ)، مُتَجَمِّعًا لَصِرَاعِ هَؤُلَاءِ (الْمُتَكَلِّمِينَ) مِنَ الْمَعْتَزِلَةِ وَغَيْرِهِمْ، الْوَاعِلِينَ الْمُتَهَجِّمِينَ عَلَى رِيَاضِ (الْبَلَاغَةِ) بِغَثَاثَةِ (عِلْمِ الْكَلَامِ) الَّذِي اتَّخَذُوهُ صِنَاعَةً وَعَمَلًا، حَتَّى ظَنُّوا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَى التَّحْكُمِ فِي كُلِّ شَيْءٍ، بِمَجْرَدِ الدَّعْوَى، ثُمَّ اللَّجَاجَةِ فِي الدَّعْوَى بِأَنَّهُمْ أَصْحَابُ (الْعَقْلِ) الْمُتَزَمُونَ بِأَحْكَامِهِ، الْقَادِرُونَ وَحْدَهُمْ عَلَى الْفَصْلِ فِي كُلِّ مَبْهَمٍ بِقَضَائِهِ الَّذِي لَا يَرُدُّا فَيُضِيقُ الْعَطَنَ، نَسَى عَبْدُ الْقَاهِرِ هِجْلَةَ الْأَسْبَابِ الَّتِي دَفَعْتَهُ إِلَى هَذَا الْمَدْخَلِ، فَأَعْرَضَ إِعْرَاضًا عَنْ تَفْحُصِ هَذِهِ الْأَسْبَابِ قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَ إِلَى مَا دَخَلَ إِلَيْهِ. وَقَدْ أَسْلَفْتُ، فِي خِلَالِ حَدِيثِي، بَيَانَ بَعْضِ تِلْكَ الْأَسْبَابِ، وَكُلُّهَا مُرْتَبِطٌ ارْتِبَاطًا وَثِيقًا بِعِلْمِ الْكَلَامِ الَّذِي كَانَ مِنْ قَبْلِ مَنْغَمَسَا فِيهِ زَمَنًا طَوِيلًا أَوْ قَصِيرًا، مِنْ حَيَاتِهِ. كَانَتْ مَسْأَلَةُ (إِعْجَازِ الْقُرْآنِ) حَدِيثًا مُحْتَدِمًا بَيْنَ الْمُتَكَلِّمِينَ، فَأَغْفَلَهُ لِعَظْمِهِمْ عَنْ تَحْيِصِ أَصْلِ (الْمَسْأَلَةِ) وَكَشَفِ إِبْهَامِهَا، قَبْلَ أَنْ يَبْدَأَ فِي تَحْيِصِ الْقَوْلِ فِي

(البلاغة) وكشف إبهامها، وذلك لضيق عطنه ولعجلته أيضاً، مع قدرته على أن يفعل . ولو فعل، التغير الأمر كل التغير، ولأتى بأكبر وأعمق وأروع مما أتى به في كتابيه الجليلين: (أسرار البلاغة) و (دلائل الإعجاز)، والله أعلم ، ولا أفتات على الغيب.

أما الآن، فقد آن لى أن أروض نفسي على ترك مخاوفها، وعلى أن أكبح جماحها أيضاً، مستعيناً بالله ربى عيسى أن يوفّقنى إلى إيجاز القول في (مسألة إعجاز القرآن)، منذ تنزيل القرآن العظيم، إلى أن استحدث لفظ (إعجاز القرآن)، ثم امتدادها إلى زمان عبد القاهر. وعندئذ يظهر السبب الذي حال بين عبد القاهر وبين تحطّي الحواجز التي كان يحسّها بوجدانه وبصيرته، ولكن لا يستطيع أن يتبينها بالعقل والنظر = وتتجلى العلة التي من أجلها وقف عبد القاهر حائراً شاخص النفس إلى هذا الذي كان يلوح له في تذوق القرآن، ثم لم يستطع الدلالة عليه إلا بالنعت المجرد، غير قادر على الإبانة عنه، وغير مطيق لمحاولة تفسيره وإزالة إبهامه، كما فسر (البلاغة) وأزال إبهامها = ويتكشف لنا أن (علم الكلام) ولغظه، ودويّه بالألفاظ المبهمة التي لا يحصل لها معنى، هو الذي قاده، من حيث لا يدري، إلى طريق مسدود، لم يجد وراءه منفذاً للإبانة والتفسير، مع قدرته، عليم الله، على ذلك.

لا بُدَّ من الحذر من أمرين عظيمي الخطر على العقل والفهم والنظر، فكلاهما مَطيَّة الضلال عن الحق : لا بد من ترك الاستهانة بالفروق البيّنة والخَفِيَّة بين الألفاظ التي تنوهم بطول الإلف أنها تقع على معنى واحدٍ وقوعاً واحداً ، وهو ما نسميه في اللغة (الترادف) = ولا بُدَّ أيضاً من الإقلاع عن إهمال تاريخ بعض هذه الألفاظ المترادفة في أوهامنا، ثم التمسُّك بالحرص على متابعة البحث عن نشأتها : متى نشأت؟ ولم نشأت؟ وكيف نشأت؟ ثم كيف وقع الترادف بين كل لفظين منهما حتى استويا في معنى واحدٍ، فاصطحبا فاعتدلا في الاستعمال، أو تزاخما فغلب أحدهما الآخر على الألسنة. وقد دلَّنى طول التتبُّع لهذه (المترادفات)، في الشعر وفي الأدب وفي الكتابة، وفي أبحاث العلماء في فنون مختلفة، على أن الاستهانة بالفروق وإهمال التاريخ، يؤدِّيَان أحياناً إلى تَفَاسُدُ المعاني تَفَاسُداً مُبِيراً، ويُفْضِيَان أحياناً أخرى إلى تَحْبُطٍ مُنْهَكٍ مَغْبَتُهُ كَدُّ عَرَقٍ، وإلى تَخْلِيطِ جَامِعِ عُقْبَاهِ ظَلَامٍ مُطْبِقٍ وَغُبَارٍ. فبالإهمال والاستهانة، يخرج طالب الحق، بعد العناء والكدِّح الشديد، ومعه حقٌّ ملطَّخُ الوجه، يَطْمِسُ نوره ما لَبَّدَهُ عليه عَرَقُ التَّخْبُطِ من غُبَارِ التَّخْلِيطِ. وَأَبِينُ ما وَقَفْتُ عليه من ذلك بياناً، هو في مباحث طُلَّابِ الحق من (المتكلمين)، كأبي

الحسن الأشعري وأبى بكر الباقلاني ومن جاء معهما أو بعدهما من علماء الأمة، غفر الله لهم وأنا بهم بحسن نياتهم، وبصدقهم في الذَّبِّ عن دينهم وبإخلاصهم بذل الجهود، في طلب الحق المنشود.

ومن أبين ذلك وأدله على خطر الاستهانة والإهمال في تحرير الفروق بين (الترادفات)، وفي تتبُّع تاريخ نشأتها، ما كان في كتب (علم الكلام) وكتب (البلاغة)، وكتب (إعجاز القرآن). فبين أيدينا في كتب علماء الأمة على اختلافهم واختلاف مباحثهم، وعلى ألسنتنا جميعاً إلى يوم الناس هذا، لفظان جاريان، هما: لفظ (الآية)، ولفظ (المعجزة)، كان لهما شأن عظيم العواقب في (باب آيات الأنبياء) الدالة على صدقهم = وفي فهمهما حيث وقعا من كتابة الكتاتين، وأقوال الناطقين = وفي استعمالهما أيضاً في أبواب مختلفة من القول والحديث والكتابة. وقد استخلم الناس قديماً وحديثاً هذين اللفظين على أنهما (ترادفان) بلا غَضَاضَةٍ، وهذا (الترادف) قد أفضى إلى خلطٍ يصعب معه تبيين وجه الحق، بل أفضى إلى ما هو أكبر من ذلك: إلى تصورنا أننا فهمنا فهماً يبلغ بنا غاية اليقين، والحقيقة أن هذا الفهم تلبس على العقل وتدلّس، يستوجب الشك ويمنع من اليقين. وقد مضت على سينون وأنا غارق في (قضية الشعر الجاهلي) أطلب

نَفْسًا أَوْ نَفْسَيْنِ حَتَّى لَا أَهْلِكَ، فَمَا نَجَوْتُ مِنَ الْهَلَاكِ حَتَّى فَصَلْتُ
فَصَلًّا حَاسِمًا بَيْنَ هَذَيْنِ اللَّفْظَيْنِ (الْمُتَرَادِفَيْنِ)، فَتَنَفَّسْتُ أَنْفَاسًا رَدَّتْ
عَلَيَّ حَيَاتِي، بِحَمْدِ اللَّهِ وَحْدِهِ، فَهُوَ الَّذِي أَغَاثَنِي حَيْثُ لَا مُغِيثَ
مِنْ خَلْقِهِ. وَهَذَا شَيْءٌ قَدْ كَانَ، مَضَتْ عَلَيْهِ أَرْبَعُونَ سَنَةً عَلَى الْأَقْل،
كَنتُ قَبْلُهَا لَا أَتَبَيَّنُ أَيًّا مِنْ أَيٍّْ، إِنَّمَا هُوَ الْقَلْقُ وَالْحِيرَةُ وَالتَّرَدُّدُ فِي
الظُّلُمَاتِ، لَا غَيْرَ.

أما لفظُ (المعجزة) فقد سلفَ القولُ فيه وفي اشتقاقه، و
بعض معناه، ثم في تاريخ نشأته في أواخر القرن الثالث من
الهجرة، وأنه لفظٌ مُحَدَّثٌ مُوَلَّدٌ، رَجَّحْتُ أَنْ أبا عبد الله الواسطي
صاحب كتاب (إعجاز القرآن)، هو أول من ولَّده. وَبَيَّنْتُ أَيْضًا لِمَ
جاء؟ وكيف جاء؟ ومتى بدأ يُرَاحَمُ لفظُ (الآية) في كتب العلماء
وعلى ألسنتهم وأقلامهم؟ = وَأَنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ الْعِلْمِ كَانُوا يَقُولُونَ
(آيَاتُ الْأَنْبِيَاءِ)، فِي مَعْنَى الْبَرَاهِينِ الدَّالَّةِ عَلَى بُيُوتِهِمْ، حَتَّى إِذَا مَا
جاء القرن الرابع الهجري بدأوا يقولون (معجزات الأنبياء)
و(آيات الأنبياء) معاً، ثم تراحَمَ اللفظان على أقلام الكتاب
والعلماء، حَتَّى غَلَبَ لَفْظُ (المعجزة) لَفْظُ (الآية)، ثُمَّ اسْتَوْلَى عَلَى
الْأَقْلَامِ وَالْأَلْسِنَةِ إِلَى يَوْمِنَا هَذَا، وَدَخَلَ لَفْظُ (الآية) فِي ظِلِّهِ حَتَّى
قَلَّ قِلَّةً ظَاهِرَةً حَتَّى كَادَ يَخْفَى، بَلْ لَعَلَّهُ قَدْ غَابَ غِيَابًا مُشْهُودًا عَنْ

كل بحث في (معجزات الأنبياء) وفي (إعجاز القرآن) خاصة، وسوف أعود إلى تمام القول في هذا اللفظ، (المعجزة)، بعد الفراغ من الكلام عن لفظ (الآية). ولفظ (الآية) في كلام أهل الجاهلية الذين نزل عليهم القرآن، كان له في شعرهم وكلامهم معانٍ أخذ بعضهم برقاب بعض.

١- فالأصل الأول الذي خرجت منه هذه المعاني هو أن (الآية) العلامة، وقد اقتصر أكثر شراح الشعر على تفسيرها حيث وقعت في شعر الشعراء، بهذا المعنى وحده، دون تفصيل، فلذلك أردت أن أفصلها هنا، ليكون ذلك أبين وأوضح وأهدى. و (الآية)، بمعنى (العلامة)، هي العلامة التي تُرى أو تُسمع، فتصبح دليلاً يَهْتَدَى به إلى خفى أو غرض أو وجهة. فآية الطريق مثلاً، هي العلامة التي يراها المسافر في طريقه، فيتحرى شطرها ويعمِدُ إليها، مهتدياً بها.

٢- ثم قالوا لآثار الديار ورسومها، أيام مقام أهلها بها، أو عقب رحيلهم عنها، وقبل أن تُغيَّرَها وتطمِسَ بعض معالمها الرياحُ والأمطارُ: (آيات الديار)، فمنه قول النابغة الذبياني [جاهلي]:

توهمت آيات لها فعرفتُها لستة أعوام وذا العام سابع
رماد ككحل العين ما إن تبينه وتؤي كجذم الحوض أنلم خاشع

منازلُ توهمها النابغة كما عهدَها منذ ستة أعوام، فتغير
الرماد على السنين، فصار كآثار كحل العين، وتغير النؤي الذي
كان يحجز الماء عن خبئه صاحبتة، فصار كبقية حوضٍ تهدم، فهو
مُتَكسِّرٌ لاطئٍ بالأرض بعد شخوصه وبروزه .

٣- ثم قالوا للبناء العالى الذي بُنى لِيُسْتَدَلَّ به : (آية).
وقد نعى هود عليه السلام على قومه عادٍ، أنهم كانوا يعتمدون إلى
كل ربوة مشرفةٍ بارزةٍ، فيبنون عليها (آية) عالية، لا لغرض الهداية،
بل سفهاً وإسرافاً وتخليداً لقوتهم وبطشهم ، بهذا المعنى جاءت
في آية واحدة من القرآن، وهى قوله تعالى فيما اقتضه من أقوال
هود لقومه: (أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ
لَعَلَّكُمْ تَخْلَدُونَ) (الشعراء ١٢٨-١٢٩)

٤- ثم قالوا لشخص الرجل وجثمانه الذي يُرى من
بعيدٍ، أو في ظلمةٍ، غير بيّن الملامح، وذلك لارتفاع شخصه
وظهوره الدال على أنه إنسان: (آية)، فمن ذلك قول عروة بن
الورد العبسى [جاهلى]، يقوله لصاحبتة أم حسان، بعد أن جشمتته

ما جَسَمْتَهُ مِنْ كَيْدِهَا بِمَكَانٍ يُقَالُ لَهُ (غَضُورٌ) :
 عفت بعدنا من أم حسان غُضُور وفي الرجل منها آية لا تغير
 والذي على الرَّحْل هو شَخْصُهُ. يعنى نفسه، وقد لَوَحَتْهُ
 الرَّحْلُ والأسفار.

٥- ثم قالوا لكل شئ تسمعه أو تراه ، فيذكرك بشيء
 نسيته أو غفلت عنه، وهو (العبرة) من العبر المذكورة (آية)، ومنه
 قول زهير بن أبى سلمى المزنى [جاهلي] :

أَرَانِي إِذَا مَا شِئْتُ لَا قِيْتُ آيَةً تَذَكَّرْنِي بَعْضُ الَّذِي كُنْتُ نَاسِيَا
 أَي لَقِيتْ عِبْرَةً مِنَ الْعِبَرَاتِ تَذَكَّرْنِي مَا نَسِيتُ، ومثله قوله
 تعالى: (لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلْمُسَائِلِينَ) [يوسف: ٧]

٦- ثم قالوا لكل شئ يُسْتَدَلُّ به على أمر قد كان وحدث،
 ولا شك عند سامعه في حدوثه، وأن المتحدث به صادق: (آية)،
 وأكثر ما تأتي بهذا المعنى مقترنة بباء الجر، فمنه قول الحُصَيْن بن
 الحِمْام المُرِّي [جاهلي] :

وَلَكِنْ خُدُونِي أَيَّ يَوْمٍ قَدَرْتُمْ عَلَيَّ، وَجَزُّوا الرَّأْسَ أَنَّ أَتَكَلَّمَا
 بِأَيَّةٍ أَنِّي قَدْ فَجَعْتُ بِفَارَسٍ إِذَا عَرَدَ الْأَقْوَامُ أَقْدَمَ مُعَلَّمَا

وهى هنا بمعنى (الأمرة) التي تكون بين اثنين أو أكثر، تدل بمجرد رؤيتها أو سماعها، على شئ يعرفونه تمام المعرفة، اتفقوا عليه، أو كأنهم اتفقوا عليه. و (الأمرة) هي التي يقول فيها الشاعر الجاهليُّ المحسن الرقيق ، يقول لصاحبه :

إِذَا طَلَعَتْ شَمْسُ النَّهَارِ، فَإِنَّهَا أَمْرَةٌ تَسْلِمِي عَلَيْكَ، فَسَلِّمِي
جعل طلوع كل شمس، في كل صباح، أمرًا بينه وبينها على تسليمه عليها. وهى بهذا المعنى باقية إلى اليوم في عاميتنا.

٧- ثم قالوا الجماعة القوم إذا رحلوا جميعًا، لحرب أو في سَفَرَةٍ (آية) لأنهم عندئذٍ بارزون في بسات الأرض ظاهرون، يقولون (خرج القوم بأيّتهم) ، أي خرجوا جميعًا، ومنه قول السُّبْرَج بن مسهر الطائي [جاهلي] :

خَرَجْنَا مِنَ النَّقِيِّينَ، لَاحِيَّ مِثْلَنَا بِأَيَّتِنَا، نُزْجِي اللَّقَاحَ الْمَطَافِلَا
هذه أيضًا أكثر ما تأتي مقترنة ببله الجر، كالتى قبلها.

٨- ثم سَمَّوْا (الرسالة) التي يحملها رسولٌ، فيبلغها إلى مَنْ يُرَادُ تبليغها إليه، وهى رسالة ملفوظة على الأكثر ، أو مكتوبة أحيانًا : (آية)، لأنها تدل على صاحبها، وعلى ما في نفسه. هو معنى عزيز أغفلته كتب اللغة، مع استفاضة في شعر عرب الجاهلية، قد نص عليه أبو جعفر الطبرى في أول تفسيره، ومنه قول

الناطقة الذيبانى [جاهلى] :

مَنْ مَبْلَغُ عُمَرَوِ بْنِ هِنْدٍ آيَةٌ ؟ وَمِنْ النَّصِيحَةِ كَثْرَةُ الْإِعْذَارِ
أَي : مَنْ يَبْلُغُهُ رِسَالَةٌ مِثْنِي؟ فِي شَعَرٍ كَثِيرٍ مِثْلِهِ. وَيُفَسِّرُ قَدَمَهُ
شَرَّاحُ الشَّعَرِ (الآيَةِ) فِي مِثْلِ هَذَا الشَّعَرِ بِأَنَّهَا (الْعَلَامَةُ)، وَهُوَ
تَفْسِيرٌ لَا يَلِيقُ، وَصَوَابٌ تَفْسِيرُهَا هُوَ مَا قَالَهُ أَبُو جَعْفَرٍ :
(الرَّسَالَةُ).

٩- (وَقَدْ قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ الطَّبْرِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ : إِنْ (الْآيَةِ)
أَيْضًا الْقِصَّةُ فَيَكُونُ مَعْنَى (آيَاتِ الْقُرْآنِ) : (الْقِصَصُ، قِصَّةٌ تَتْلُو
قِصَّةً، بِفُصُولٍ وَوُصُولٍ). وَلَمْ أَجِدْ فِي شَعَرِ الْجَاهِلِيَّةِ وَلَا غَيْرِهِمْ، مَا
يَجُوزُ مَعَهُ أَنْ يَحْمَلَ مَعْنَى (الْآيَةِ) عَلَى أَنَّهُ (الْقِصَّةُ)، فَمَنْ أَجَلَّ
ذَلِكَ أَجَدَ هَذَا الْوَجْهَ ضَعِيفًا عِنْدِي، وَهُوَ تَعْبِيرٌ غَيْرُ مُفِيدٍ فِي مَعْنَى
(الْآيَةِ)، وَلَا أَدْرِي كَيْفَ قَالَهُ أَبُو جَعْفَرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ؟ فَهَذَا الْمَعْنَى
التَّاسِعُ، لَا أَحِبُّ أَنْ أَعْتَدَ بِهِ، حَتَّى تَثْبُتَ عِنْدِي صَحَّتُهُ.

وَيَبَيِّنُ أَنَّ هَذِهِ الْحَاجِرَى الثَّمَانِيَّةَ الَّتِي يَجْرَى فِيهَا لَفْظُ (الْآيَةِ)،
تَتَّبِعُ كُلُّهَا مِنْ مَعْنَى الْعَلَامَةِ الظَّاهِرَةِ الْبَيِّنَةِ الدَّالَّةِ، الَّتِي تَرَاهَا
الْعَيْنُ، أَوْ تَسْمَعُهَا الْأُذُنُ، أَوْ يَتَوَهَّمُهَا الْقَلْبُ، أَوْ يَتَقَفَّهَا الْعَقْلُ،
هَادِيَةً عَلَى الطَّرِيقِ أحيانًا، وَتَكُونُ دَلِيلًا عَلَى مَعْنَى يَتَطَلَّبُ الدَّلِيلُ
أحيانًا أُخْرَى = وَتَكُونُ شَاهِدًا عَلَى صِدْقِ الْحَدِيثِ وَالْحَدِيثِ تَارَةً،

وبيانا صادقا أو أمانة مصدقة تارة أخرى. فهي، إذن، في جميع مجاريها متعاقبة المعاني، مسترسلة، سهلة التنقل من مجرى إلى مجرى بلا كد تلقاه على مجازها، وبلا توقف يحبس سامعها عن سهولة التنقل معها من معنى إلى أخيه، وبلا غضاضة في تبين ملامح الشبه بين هؤلاء الإخوة. بيد أني لم أجد عند أهل الجاهلية في كثير شعرهم الذي وقع إلينا، ولا في قليل كلامهم الذي أثر عنهم، ما يدل على أنهم قالوا : (آيات الأنبياء)، وهم يعنون (الآية) الشاهدة على صدق نبوة النبي، والأمانة المعروفة على أن مدعى ذلك رسول من الله إلى عباده من البشر. ولكني لا أظن أن فقدان هذا التعبير في شعرهم وكلامهم الذي وصل إلينا، يقوم دليلا على أنهم لم يعرفوا قط معنى (آيات الانبياء) في جاهليتهم. بل أنا أقطع بأنهم كانوا يعرفون معنى (آيات الانبياء) مركبة معرفة صحيحة واضحة، ويعرفون معنى (الآية) ومعنى (النبي) غير مركبين، بأوضح وأسلم مما يعرفه أهل الكتابين جميعا، أصحاب التوراة والإنجيل، كما سترى الحجة في الفصل التالي (٢٠).

وبديهة هذه الجارية الثمانية للفظ (الآية)، تقطع قطعاً مُقَضِّياً إلى اليقين، أن أهل الجاهلية، لو هم كانوا قد سَمِعُوا برجل يفعل فعلاً، تكفى رؤيته ومُعَايَنَتُهُ في الدلالة على أنه فعلٌ داخلٌ

دخولاً مبيناً في قدرة الله وحده سبحانه، وأنه ممتنع أصلاً امتناعاً
 مبيناً عن قدرة البشر = لقالوا من فورهم، على سليقة مجازهم في
 لغتهم: (هذه آية!) أو (هذه أمانة!)، أي أنها دليل صادق وشاهد
 مبين، على أن الرجل قد صدق في دعواه أن الله أرسله نبياً، أيّده
 بهذا الفعل الدالة مُعَايِنَتُهُ على أنه داخل في أفعال الله التي استأثر
 بها دون خلّاقه كافة. فهذا، إذن، معنى ظاهر كل الظهور، جارٍ
 على مجاز لغة العرب في الجاهلية جريئاً سريعاً، أي سهلاً سريعاً
 لا يعوقه شيء. وغير مُسْتَبَعِدٍ عندي أن يكون كان في بعض كلامهم،
 ثم سقط من السنة رواة شعر أهل الجاهلية وكلامهم وأخبارهم،
 فيما سقط من الشعر والأخبار التي تؤثر. ولذلك، فلا بد من
 التوقف قليلاً، ومن التأنى في الكشف عن لفظ (الآية)، وعن
 معناه عند أهل الجاهلية الذين نزل عليهم القرآن، فإن هذا
 الكشف مرتبط ارتباطاً وثيقاً بموقفهم من القرآن في الحالين جميعاً:
 في حال جَحْدِهِمْ إياه وكفر من كفر به منهم، وفي حال تقبُّلِهِمْ
 نبوة تاليه عليهم، وإيمان مَنْ آمَنَ منهم به. ومعرفة هذا المعنى
 معرفة واضحة، تُسْقِطُ الحجاب الكثيف الذي أسدله لفظ
 (المعجزة) ولفظ (إعجاز القرآن)، على حقيقة الوجه الذي آمَنَ
 عليه من آمَنَ بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم، والذي كفر عليه

من كفر من أهل الجاهلية الذين نزل عليهم القرآن العظيم ،
(آية) لرسولٍ من أنفسهم جاءهم على فترةٍ من الرسل.

٢٠

بَلْ هَهُنَا أَصْلٌ مِنْ أَصُولٍ مِنْهَجِي، أَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْمَوْضِعَ مِنْ
حَدِيثِي لَيْسَ مَكَانَ تَفْصِيلِهِ وَالِاحْتِجَاجِ لَهُ، وَلَكِنِّي لَا أَمْلِكُ
التَّفَلُّتَ مِنْهُ وَإِغْفَالَهُ، لِأَنِّي أَعَدُّ تَرْكَ التَّنْبِيهِ عَلَيْهِ هُنَا خِيَانَةً لِأَمَانَةِ
العقل، وَإِغْفَالِ الْإِشَارَةِ إِلَيْهِ يَجْعَلُ تَتَمَّةَ بَحْثِي عَنْ لَفْظِ (الْآيَةِ)
عُرْضَةً لِلتَّوَقُّفِ وَالتَّشَكُّكِ وَالتَّسَاؤُلِ، مِمَّنْ لَمْ يَعْرِفِ الْمَذْهَبَ الَّذِي
أَبْنَى عَلَيْهِ أَكْثَرَ كَلَامِي. وَإِذَا أَنَا رَضِيتُ بِذَلِكَ لَمَّا أَكْتُبُهُ، فَقَدْ رَضِيتُ
لَهُ بِأَمْرِ كَرِيهِ مُسْتَشْنَعٍ. فَمَنْ أَجَلَ ذَلِكَ رَأَيْتُ أَنَّ أَقْتَصِرَ عَلَى مَا
لَا بُدَّ مِنْهُ، حَتَّى يَسْتَيِّبَ الْأَمْرُ لِلْمُوَافِقِ وَالْمُخَالَفِ جَمِيعًا، وَرُبَّ شِعَاعٍ
نَجَّى حَائِرًا فِي ظُلْمَةٍ وَهْدَاهُ. وَأَنَا فِي خِلَالِ حَيْرَتِي الطَّوِيلَةِ فِي قَضِيَّةِ
(الشَّعْرِ الْجَاهِلِيِّ)، أَلْتَمِسُ الْمَخْرَجَ مِنَ التَّيْهِ الَّذِي وَقَعْتُ فِيهِ، لَمْ
أَجِدْ عَاصِمًا يَعْصِمُنِي مِنَ الْغُرُقِ فِي الْمُنْتَاقِضَاتِ الْمُضِلَّةِ، إِلَّا
تَصْحِيحَ الْمَبَادِي خُطْوَةً خُطْوَةً، وَدَرَجَةً دَرَجَةً، لِأَنَّ الْبِنَاءَ عَلَى مَبَادِيٍّ
غَيْرِ مُحَرَّرَةٍ مِنَ الْخَطَا وَالْإِدْعَاءِ، وَغَيْرِ مُنْقَاةٍ مِنَ الشَّوَائِبِ وَالْأَوْهَامِ،
تَنْتَهِي بِنَا إِلَى نَتَائِجٍ مُخْتَلِطَةٍ مَبْعَثَةٌ مُتَضَارِبَةٌ، يَعْسُرُ الْجَمْعُ بَيْنَهَا فِي

سياق واحد مفهوم أو مقبول وعلى هذا الأصل كانت سيرتى فى دراسة ما بلغه علمى بقديم كتب علمه هذه الأمة، ثم فى قراءة الحديث الذى كُتب بلغة العرب أو بغير لغة العرب ، أما القديم، على ما لقيت فيه من العنت والمشقة، فتحرير المبادئ وتنقيتها، كان أمراً قريباً من الميسور، لأن المتناقضات التى وقعت فيه، كان أكثرها نابعاً من أصل واحد واضح متفق عليه، فما زاغ عن هذا الأصل تناقض. وكشف مواطن الرِّيب عن الأصل الواضح ممكن بالأناة والتوقف وتحرير المبادئ. أما الحديث فالأمر فيه مختلف جداً لأنه مبني على أصل مبين كل المباشرة للأصل الذى بُنى عليه القديم من كتب علمه هذه الأمة. فليس ما يلقاه المرء عندئذ عتياً ومشقة، بل بلاء ماحقاً مهلكاً لمن غفل عن منبع هذا الأصل، وعن الأثر الذى أحدثه فى جمهرة المثقفين من أهل زماننا، فى فهم كل ما يتعلق بالعرب ولغتهم وتاريخهم وأدابهم وعلومهم، بلا استثناء، وعلى اختلاف مناهج البحث فيها. وفى كل فرع من فروعها الكثيرة المتشعبة المختلفة المقاصد والغايات.

وقد كان مما كان أن حضارة العرب والمسلمين فى القرن الحادى عشر الهجرى، كانت تعاني ما تعانيه كل حضارة طال عليها الأمد فاسترخت قواها، ونجمت يومئذ حضارة جديدة كان من

همها أن تصارعها، لأسباب تاريخية متنوعة. وكان منشأ هذه الحضارة الجديدة على أصليّين مُتمكّنين: أولهما، كتب العقيدة المتوارثة التي ينشأ عليها ناشئهم، وثانيهما، ما اتخذوه نسباً ينتمون إليه، وهو قديم حضارة اليونان بتاريخها وعقائدها وآدابها، وهذا الأصلان مباينان، بلا ريب، كل المباينة لأصول حضارة العرب والمسلمين التي ننتمى نحن إليها. ها... وأفٍ لهذا القلم! لقد ساقنى مساقاً بعيداً! ولكن لا مناص، لأن هذا المدخل هو كما وصفته: (تاريخ حيرنى، ثم اهتديت)، وهذا الكتاب نفسه هو كما قلت: (يقص قصة طويلة عريضة في صفحات قلائل، وبمنهجى في تحليل الكلام وتحليل التاريخ، لأنه المنهج الذي التزمته، فنجوت من شر مستطير، ومن بلاءٍ ماحق)، فلو أسقطت هذا الفصل، لأسقطت معه الصفة التي وصفت بها هذا الكتاب، ولباحث القصة التي أقصها.

كان مما أجهلتنى إليه محتى بالشعر الجاهلي: أن أقرأ كل ما كان يتاح لى يومئذ أن أقرأه بالعربية وغير العربية عن هذا الإنسان الذي نحن بنوه، وعن أوليته، وعن انتشاره في الأرض، وعن عقائده، وعن حضارته المعركة في القدم، وأكثر هذا شئ لم يكن لنا به كثير علم، والذي في كتبنا القديمة، أقوالٌ وروايات

مختلطة لا تغنى. وقد فُتِح للأعاجم المحدثين فيه فتح جليل فكان لهم الفضل كل الفضل في التنقيب في الأرض، وفي كشف الغطاء عن كثير من الحضارات البائدة المطمورة تحت أطباق الزمن وفي جدف الثرى. كنت أرى أن متابعة هذه القراءة لا غنى لى عنها، حتى أستطيع أن أفسر لنفسى الحائرة هذا الإنسان الغامض الذي سكن جزيرة العرب قرونًا لا يعلمها إلا الله. وانحدر عن صلب إلى صلب، حتى جاء هذا (العربي الجاهلي) الذي أورثنا شعراء فريدًا غريبًا متنوع النغم تنوعًا لا شبيه له في لغات الأرض، ولا ينقضى العجب من جريه النفاذ الأخاذ، في ستة عشر بحرًا، تنبثق من جميعها ضروبٌ وأعاريض متباينة النغم، متداخلة اللحون = بل هذا الغنى الفيّاضُ والثراء الوافر من ألفاظ اللغة التي تجرى على لسانه ممتدة الجذور شرقًا وغربًا وشمالًا وجنوبًا، كان لكل من الأمم التي نشأت حوله بحضارتها نصيبًا في لسانه، بلا كتاب مكتوب، ولا سجل ضابط، حتى قال الشافعى: (ولسان العرب أوسع الألسنة مذهبًا، وأكثرها ألفاظًا، ولا نعلمه يحيط بجميع علمه إنسان غير نبي!) = بل هذا الإحكام المذهل في بناء لغته وتراكيبها وتصاريقها وأساليبها المتشعبة ذات الحظ الباذخ من البدالات المعبرة عن أخفى نبض القلوب والنفوس والعقول = بل هذه

اليقظة العجيبة التي تميز بها هؤلاء الجاهليون، لكل ما يحيط بهم، فأودعوها شعرهم وبيانهم = بل في حدوث ذلك كله في بحر من الرمال والجبال والفيافي والأودية، قليلة قراه، متناثرة في غمرته مساكن الأحياء !! ثم لا نجد لهذا شبيهاً يقاربه أو يدانيه في بوادي هذه الأرض التي نسكنها ! كيف ثم لهم كل هذا الذي انفردوا به؟ وكم من القرون بعد القرون يمكن أن تكون قد تصرمت حتى يملك هذا الجاهلي الذي نعرفه، هذا القدر الذي بقى في أيدينا أقله، وتسقط مع أكثره من ذاكرة لا تكتب ولا تحب ولا تقيد، ومع ذلك فهو يفوق ما عند الكاتبين الحاسبين ! أمكن أن يكون هذا كله قديم على هذا الوجه في مئة سنة ؟ في مئتي سنة ؟ في خمسمئة سنة ؟ في ألف سنة ؟ ! لا أظن، فمن أجل هذا حاولت أن أتمس لنفسى تفسيراً أقنع به وأستريح إليه.

ولكن إدمان القراءة لم يزدنى إلا حيرة، وسقطت في المسالك الوعرة، والأشواك المتشابكة، والظلمات الخيرة، ومزقتنى الشكوك بأنيابها، واستحال على أن أفهم تاريخ هذا الإنسان الذي أنا منه بنيت، وأن أقتنع بأنه كان في أوليته كما صورته لى هذه القراءة في الحديث المتجدد المستفيض، وكان ما كان ! تصرفت بي الأيام والليالى طويلاً، وأنا مُمزَّق بين ما تعلمته في مدارسنا

صغيراً. والذي قرأته أيضاً شاباً، وبين هذه الحقائق السني مثلها إلى
الشعر الجاهلي، والتي أخرجتني إلى طلب التفسير. وبعد لأيّ ما
تبين لي الطريق والمنهج، وعندئذ سقطت الأقنعة عن الوجوه فإذا
كل قرأته عن أولية الإنسان في الأرض، وعن تاريخ الحضارات
البائدة التي كان للأعاجم فضل الكشف عن آثارها، وعن حقيقة
عقائد الأمم الخالية، وكثير غير ذلك = كان كله خاضعاً خضوعاً
مستبيناً للأصلين الذي بنيت عليهما الحضارة الحديثة وعقلها
وتفكيرها وأخلاقيها، وتكشّفت لي أيضاً حقيقة أخرى: أن
للأهداف السياسية أثراً عميقاً جداً في جذور هذه الحضارة يتغلغل
موجّها لكل ما يكتب، عن عمد أو عن غير عمد. ولكي يكون
الأمر واضحاً، ينبغى أن أحدد موضع الفصل الذي جعلني أرفض
أن أسير في الطريق الذي ألزمتنا بالسير فيه غلبة السلطان الثقافي
والسياسي لهذه الحضارة، وسيطرتها على كل الميادين بلا استثناء.
وهي قصة طويلة، ولكنني سأوجز القول فيها ما استطعت.

ومن العجز أن نتوهم، كما هو شائع بيننا اليوم، إن الأمر
كله جاء عفواً بلا قصد ولا تدبير، وإنه مستمر إلى هذا اليوم بلا
قصد ولا تدبير، وإن هذه هي (طبيعة الأشياء): مجرد المتقابلة
حضارتين في زمن واحد، إحداها حديثة رائعة متحركة، قد

أحكمت سيطرتها على مفاتيح العلم والمعرفة، حتى بلغت ما بلغت، والأخرى قديمة كانت ذات تراث رائع، ثم طال عليها الأمد فاستبقت قواها وهمدت وغفت، فلما التقنا هبَّ الغافل الهامد من غفوته، ورأى ما بلغه هذا اليقظ المتحرك، فلم يجد بُدًّا من أن يأخذ مأخذه، ويتعلم منه ما فاته وجهله في زمان غفوته، ولم يجده عيبا يعاب أن يسند إلى أخيه أمر تعليمه وتيقنه حتى يلحق به ويدركه، وحتى يحكم هو أيضا سيطرته على مفاتيح العلم والمعرفة فيبلغ ما بلغ، وتستوى الأقدام في حضارة واحدة رائعة!! وهذا السياق ليس عجزاً فحسب، بل هو عبثٌ عابثٌ لا يدرى ما يفعل ولا ما يقول، ويكفى أن ننظر نظرة واحدة، فقد مضى قرنان كاملان، سيطرت فيهما هذه الحضارة الحديثة عليها، وعلى أكبر جزء من آسيا وعلى أفريقيا كاملة، وبقيت هذه الأمم جميعا في قبضتها تعلمها وتثقفها!! ومع ذلك فقد بقي الفرق بيننا جميعا وبينهم هو نفس الفرق الذي كان منذ أول يوم تم فيه اللقاء بيننا وبينهم نسبة محفوظة وستظل محفوظة، فإذا لم يكن هذا عن تدبير وقصد، يعنى أي شيء غيرها يكون؟ ما لم تُفقْ إفاقة صحيحة مُدركة لهذا التناقض الصريح بين موارثنا التي ينبغى أن نبني عليها ثقافتنا وعلمنا، وبين موارثهم التي بنوا عليها علمهم وثقافتهم. فإذا فعلنا وتبينت جماهير الأمم موضع الفصل الذي

يفصل بيننا وبين ما تروجه فينا بقصد وتدبير، تحت بهرج لا يناظر
بالضعف به وأن حضارتهم (الحضارة العالمية) وأن ثقافتهم
(الثقافة الإنسانية). ثم نصدق ذلك نحن كأنه حقيقة لا تقبل
النقض ولا الجدل. (١)

(١) إلى هنا انتهى ما وصل إلينا من أصول المدخل الأول كما كتبها الأستاذ شساکر
رحمه الله بخطه ولم يكمله.

المدخل الثاني

تزویر (یعنی ہمیں تزویر)

فضل في إيجاز الفقرة بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده لا شريك له، حمداً يقرّبنا إلى رضوانه،
وصلاة الله وسلامه على نبيه المصطفى من أبناء الرسل الكريمين
إبراهيم، وإسماعيل، صلاة تزلّفنا إلى جنته.

هذا كتاب (الظاهرة القرآنية)

وكفى، فليس عدلاً أن أقدم كتاباً هو يُقدّم نفسه إلى قارئه.
وبحسب أخي الأستاذ مالك بن نبي، وبحسب كتابه أن يشار إليه.
وإنه لعسير أن أقدم كتاباً هو نهجٌ مستقل، أحسبه لم يسبقه كتابٌ
مثله من قبل وهو منهجٌ متكامل يفسّره تطبيق أصوله. كما يفسره
حرص قارئه على تأمل مناحيه. ولا أقول هذا ثناءً، فأنا أعلم أن
رجلاً أثنى على رجل عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال له:
(ويلك قطعت عنق صاحبك)، قالها ثلاثاً. ومالك أعزُّ على من أن
أقطع عنقه بثنائي أو أهلكه بإطرائي. ولكن احسبني من أعرف
الناس بخطر هذا الكتاب، فإن صاحبه قد كتبه لغاية بيّنها،
ولأسباب فصلّها، وقد صهرتني الغن، دهرًا طويلاً، فاصطليت
بالأسباب التي دعتني إلى اتخاذ منهجه في تأليف هذا الكتاب، ثم
أفضيت إلى الغاية التي أرادها، بعد أن سلكت إليها طرقاً موحشة

مَخُوفَةً، وقد قرأتُ الكتابُ وصاحِبَتُهُ فكنتُ كلما قرأتُ منه فصلاً
أجدني كالسَّائرِ في دروبٍ قد طال عهدي بها، وَخَيْلٌ إِلَى أَنْ مَالِكَا
لم يُولف هذا الكتابُ إلا بعد أن سقط في مثل الفتن التي سقطتُ
فيها من قبل، ثم أقال الله عثرته بالهداية. فكان طريقه إلى المذهب
الصحيح هو ما ضَمَّنَه كتابه من بعض دلائل إثبات إعجاز القرآن،
وأَنه كتاب منزَّل أنزله الذي يعلم الخبء في السموات والأرض،
وَأَن مبلغه إلى الناس، صلى الله عليه وسلم، رسول صادق قد بَلَغَ
عن ربه ما أمره بتبليغه وَأَن بين هذا الرسول الصادق وبين الكلام
الذي بلغه حجازاً فاصلاً، وَأَن هذا الحجاز الفاصل بين القرآن
وبين مبلغه، حقيقة ظاهرة، لا يخطئها من درس سيرة رسول الله
فاحصاً متأملاً، ثم دارس كتاب الله بعقل يقظ غير غافل .

وهذا المنهج الذي سلكه مالك، منهج يستمد أصوله من
تأمل طويل في طبيعة النفس الإنسانية، وفي غريزة التدين في فطرة
البشر، وفي تاريخ المذاهب والعقائد التي تُوسَم بالتناقض أحياناً،
ولكنها تكشف عن مستور التدين في كل إنسان. ثم هو يستمد
أصوله من الفحص الدائب في تاريخ النبوة وخصائصها، ثم في
سيرة رسول الله بأبي هو وأمي، منذ نشأته إلى أن لحق بالرفيق
الأعلى، ثم في هذا البلاغ الذي جاء ليكون بنفسه، دليلاً على

صدق نفسه، أنه كلام الله، المفارق لكلام البشر من جميع نواحيه .
وفى خلال هذا المنهج تستعلن لك المحنة التي عاناها مالك،
كما عانيتُها أنا وكما عاناها جيلٌ من المسلمين في هذا القرن. بل
إنك لتجد المحنة ماثلة في (مدخل الدراسة، وهو الفصل الذي
استفتح به كتابه، حيث صَوَّرَ لك مشكلة الشباب المسلم المتعلم
في هذا العصر، وما كان قاساه، وما لا يزال يقاسيه، من العَنَتِ في
إدراك إعجاز القرآن، إدراكاً يرضاه ويطمئن إليه).

وهذا (العقل) الحديث الذي يفكر به شباب العالم
الإسلامي، والذي يريد أن يدرك ما يرضيه ويطمئن إليه من دلائل
إعجاز القرآن، هو لبُّ المشكلة فإن (العقل) هبة الله لكل حي
ولكن أساليب تفكيره كَسَبُ يكتسبه من معالجة النظر، ومن
التربية، ومن التعليم، ومن الثقافة، ومن آلاف التجارب التي
يحياها المرء في هذه الحياة. فينبغي قبل كل شيء أن نتدبَّرَ أمر هذا
(العقل) الحديث في العالم الإسلامي لأن فهم هذا (العقل) هو
الذي يحدِّد لنا طريقنا ومنهجنا في كل دراسة صحيحة نحب أن
نقدمها إليه حتى يطمئن ويرضى.

فمنذ أول الإسلام خاضت الجيوش الإسلامية معارك
الحرب في جميع أنحاء الدنيا، وخاض معها العقل الإسلامي معارك

أشد هولا حيث نزل الإنسان المسلم. وتقوّضت أركان الدُّول تحت وطأة الجند المظفر، وتقوّضت معها أركانُ الثقافات المتباينة تحت نور العقل المسلم المنصور، وظلت الملاحم دائرة الرّحى قروناً مُتطاولة في ميادين الحرب وميادين الثقافة حتى كان هذا العصر الأخير .

انبعثت الحضارة الأوربية، ثم انطلقت بكل سلاحها لتخوض في قلب العالم الإسلامي، أكبر معركة في تاريخنا وتاريخهم. وهى معركة لم يُحِطْ بأساليبها وميادينها أحدٌ بعدُ في هذا العالم الإسلامي، ولم يتقصَّ أحدٌ آثارها فينا، ولم يتكفل بدراستها من جميع نواحيها مَنْ يطبق أن يدرس، ولست أزعم أني سأدرسها في هذا الموضع، ولكن سأدُلُّ على طَرَفٍ منها، ينفع قارئ هذا الكتاب، إذا صحَّ عَزَمُهُ على معاناة دراسته دراسة الحريص المتغلغل.

لم تكن المعركة الجديدة بين العالم الأوربي المسيحي، وبين العالم الإسلامي، معركةً في ميدان واحد، بل كانت معركة في ميدانين: ميدان الحرب، وميدان الثقافة. ولم يلبث العالم الإسلامي أن ألقى السلاح في ميدان الحرب، لأسباب معروفة أما ميدان الثقافة، فقد بقيت المعارك فيه متتابعة جيلا بعد جيل، بل عامًا بعد عام، بل يومًا بعد يوم، وكانت هذه المعركة أخطر المعركتين،

وأبعدهما أثرًا وأشدّهما تقويضًا للحياة الإسلامية، والعقل الإسلامي. وكان عدوّنا يعلم ما لا نعلم، كان يعلم أن هذه هي معركته الفاصلة بيننا وبينه، وكان يعلم من خباياها ما لا نعلم، ويدرك من أسرارها ووسائلها ما لا ندرك، ويعرف من مياديينها ما لا نعرف، ويصطنع لها من الأسلحة ما لا نصطنع، ويتحرى لها من الأسباب المفضية إلى هلاكنا ما لا نتحرى أو نلقى إليه بالا. وأعانه وأيده أن سقطت الدول الإسلامية جميعًا هزيمة في ميدان الحرب، فسقطت في يده مقاليد أمورها في كل ميدان من ميادين الحياة، وصار مُهيمنًا على سياستها واقتصادها وصحافتها أي سقطت في يده مقاليد التوجيه الكامل للحياة الإسلامية وللعقل الإسلامي.

وميادين معركة الثقافة والعقل، ميادين لا تعد، بل تشمل المجتمع كله في حياته، وفي تربيته وفي معاشه، وفي عقائده وفي آدابه، وفي فنونه، وفي سياسته بل في كل ما تصبح به الحياة حياة إنسانية، كما عرفها الإنسان منذ كان على الأرض. والأساليب التي يتخذها العدو للقتال في معركة الثقافة، أساليب لا تعد ولا تُحصى، لأنها تتغير وتتبدل وتتجدد على اختلاف الميادين وتراحيها وكثرتها. وأسلحة القتال فيها أخفى الأسلحة، لأن عقل

المثقف يتكون يوماً بعد يوم، بل ساعة بعد ساعة، وهو يتقبل
بالتربية والتعليم والاجتماع، أشياء يسلمها بالإلف الطويل،
وبالعرض المتواصل، وبالمكر الخفي، وبالجidal المضلل، وبالمراء
المتلون، وبالهوى المتغلب، وبضروب مختلفة من الكيد الذي يعمل
في تحطيم البناء القائم، لكي يقيم العدو على أنقاضه بناء كالذي
يريد ويرجو .

وقد كان ما أراد الله أن يكون، وتتابع هزائم العالم
الإسلامي في ميدان الثقافة جيلاً بعد جيل، وكما بقيت معارك
الحرب المتتابعة سرّاً مكتوما لا يتدارسه قادة الجيوش الإسلامية
وجنودها حتى هذا اليوم، بقيت أيضاً معارك الثقافة على تطاولها،
سرّاً خافياً لا يتدارسه قادة الثقافة الإسلامية وجندها. بل أكبر من
ذلك : فقد أصبح أكثر قادة الثقافة في العالم الإسلامي، وأصبح
جنودها أيضاً، تبعاً يأثمرون بأمر القادة من أعدائهم، عارفين أو
جاهلين أنهم هم أنفسهم قد انقلبوا عدوّاً للعقل الإسلامي الذي
ينتسبون إليه، بل الذي يدافعون عنه أحياناً دفاع غيرة وإخلاص .
لم يكن غرض العدو أن يقارع ثقافة بثقافة، أو أن ينازل
ضلالاً بهدى، أو أن يصارع باطلاً بحق، أو أن يحو أسباب ضعف
بأسباب قوة، بل كان غرضه الأول والأخير أن يترك في ميدان

الثقافة في العالم الإسلامي، جرحى وصرعى لا تقوم لهم قائمة، وينصب في أرجائه عقولا لا تدرك إلا ما يريد لها هو أن تدرك، ولا تبصر إلا ما يريد لها هو أن تبصر، ولا تعرف إلا ما يريد لها هو أن تعرف، فكانت جرائمه في تحطيم أعظم ثقافة إنسانية عُرِفَتْ إلى هذا اليوم، كجرائمه في تحطيم الدول وإعجازها مثلاً بمثل، وقد كان ما أراد الله أن يكون، وظفر العدو فينا بما كان ينبغي ويريد.

وقد فصل مالك في "مدخل الدراسة" محنة (العقل) الحديث في العالم الإسلامي، على يد أمضى أسلحة العدو في تهديم بعض جوانب الثقافة، بل أهم جوانبها، وهو سلاح (الاستشراق)، سلاح لم يدرسه المسلمون بعد، ولم يتتبعوا تاريخه، ولم يكشفوا عن مكائده وأضاليله، ولم يقفوا على الخفي من أسرار مكره، ولم يستقصوا أثره في نواحي حياتهم الثقافية، بل في أكثر نواحي حياتهم الإنسانية .. كيف ؟ .. بل كان الأمر عكس ما كان ينبغي أن يكون، فهم يتدارسون ما يلقيه إليهم على أنه علم يتزوده المتعلم، وثقافة تشربها النفوس، ونظر تقتفيه العقول، حتى كان ما قال مالك : "إن الأعمال الأدبية هؤلاء المستشرقين، قد بلغت درجة خطيرة من الإشعاع لا تكاد نتصورها" وتفصيل أثر هذا الإشعاع في تاريخنا الحديث، وفي سياستنا، وفي عقائدنا، وفي

كتبنا، وفي أدبنا، وفي أخلاقنا، وفي مدارسنا، وفي صحافتنا، وفي كل أقوالنا وأعمالنا، شئ لا يكاد يحيط به أحد.

وهذا الإشعاع، كما سماه مالك، كان من أعظم الأسباب وأبعدها خطراً في (العقل) الحديث، الذي يريد أن يدرك دلائل إعجاز القرآن، إدراكاً يرضى عنه ويطمئن إليه. وهو الذي أوقع الشك في الأصول القديمة التي قامت عليها أدلة إعجاز القرآن، بل أكبر من ذلك، فإنه قد اتخذ أساليب غاية في الدهاء والخفلة، أفضت إلى تدمير الوسائل الصحيحة التي ينبغي أن يتذرع بها كل من درس نصاً أدبياً، حتى يتاح له أن يحكم على جودته أو رداءته فضلاً عن بلاغته أو إعجازه.

وقد ذكر مالك في "مدخل الدراسة" تلك القضية الغربية التي عرفت بقضية (الشعر الجاهلي) والتي أثارها المستشرق مرجليوث في بعض مجلات المستشرقين، ثم تولى كبرها (طه حسين) في كتابه "في الشعر الجاهلي"، يوم كان أستاذاً للأدب العربي بالجامعة المصرية. ولن أذكر هنا تلك المعارك التي أثارها كتاب (في الشعر الجاهلي) ولكنني أذكر، كما ذكر مالك أن هذه القضية بأدلتها ومناهجها، قد تركت في (العقل) الحديث في العالم الإسلامي، أثراً لا يحى إلا بعد جهد جهيد، والعجب أن

مرجليوث قد أتى في بحثه بزيّف كثير، كان هو الأساس الذي بنى عليه هذا (العقل) وقد حاول مئات من رجال الفكر أن يزيّفوا الأدلة والمناهج، ولكن هذا الزيف بقي بعد ذلك طابعاً مميزاً لأكثر ما ينشره الطلبة والأساتذة إلى يومنا هذا. ولا تُحاكم مرجليوث وأشياعه إلى رأيك ونظرك، بل دع محاكمته إلى مستشرق مثله، هو آربري، يقول في خاتمة كتابه "المعلقات السبع" وذكر أقوال مرجليوث وفنّدها: (إن السفسطة - وأخشى أن أقول: الغش - في بعض الأدلة التي ساقها الأستاذ مرجليوث، أمر بيّن جداً، ولا تليق البتة برجل كان، ولا ريب، من أعظم أئمة العلم في عصره). وهذا حكم شنيع، لا على مرجليوث وحده، بل على كل أشياعه وكهنته، وعلى ما جاءوا به من حطام الفكر.

ولكن العجب عندي بعد ذلك أن مالكا ارتكز على ذكر هذه القضية، وعلى أثرها في العقل الحديث، ثم انطلق منها إلى نتيجة أخرى، فقال: "وعلى هذا فالمشكلة بوضعها الراهن تتجاوز في مداها نطاق الأدب والتاريخ وتهم مباشرة منهج التفسير القديم كله، ذلك التفسير القائم على المقارنة الأسلوبية، معتمداً على الشعر الجاهلي كحقيقة لا تقبل الجدل، وعلى أية حال فقد كان من الممكن أن تنور هذه المشكلة تبعاً للتطور الجديد في

الفكر الإسلامي، وإنما بصورة أقل ثورة. فمنهج التفسير القديم يجب أن يتعدل في حكمه وروية، لكي يتفق مع مقتضيات الفكر الحديث". ثم قال: "لقد قام إعجاز القرآن حتى الآن على البرهان الظاهر على سمو كلام الله فوق كلام البشر. وكان لجوء التفسير إلى الدراسة الأسلوبية لكي يضع لإعجاز القرآن أساساً عقلياً. فلو أننا طبقنا نتائج فرض مرجليوث .. لانهار ذلك الأساس .. ومن هنا توضع مشكلة التفسير على أساس هام بالنسبة لعقيدة المسلم، أعنى برهان إعجاز القرآن في نظره". ثم أفضى إلى هذا الحكم: "والحق أنه لا يوجد مسلم، وبخاصة في البلاد غير العربية - يمكنه أن يقارن موضوعياً بين آية قرآنية، وفقرة موزونة أو مقفاة من أدب اللغة العربية، ليمكننا أن نستنبط من مقارنة أدبية نتيجة عادلة حكيمة".

وأنا أحب أن أناقش هذه المقالة، حتى أعين القارئ على أن يضع كتاب "الظاهرة القرآنية" في مكانه الذي ينبغي له، وحتى تبين له معالم الطريق الذي يسير فيه وهو يقرأ هذا الكتاب، وحتى يستفيد من أدلته وبراهينه قوة تعينه على أن يضع أساساً يقيم عليه عقيدته وإيمانه.

ولا أدري ما الذي ألجأ أخي مالكا إلى ذكر (تفسير القرآن) ومنهجه القديم في هذا الموضوع ؟.. إنه إقحام لباب من علوم الإسلام قائم برأسه، لا يسه فرض مرجليوث من قريب أو بعيد، وعلم تفسير القرآن كما أسسه القدماء ، لا يقوم على مقارنة الأساليب، اعتماداً على شعر الجاهلية أو شعر غير الجاهلية، وإذا اقتضت الحاجة أن ندخل تعديلاً على منهج التفسير القديم، فإنه عندئذ تعديل لا علاقة له البتة بالشعر الجاهلي، لا من قِبَل الشك في صحته، ولا من قِبَل مقارنة الأساليب الجاهلية بأسلوب القرآن. وكل ما عند القدماء من ذكر الشعر الجاهلي في تفسيرهم ، فهو أنهم يستدلون به على معنى حرف في القرآن، أو يبين خاصة من خصائص التعبير العربي كالتقديم والتأخير والحذف وما إلى ذلك، وهذا أمر يصلح له شعر الجاهلية، كما يصلح له شعر الإسلام وغاية تفسير القرآن، كما ينبغي أن نعلم، إنما هي بيان معاني ألفاظه مفردة، وجمله مجتمعة، ودلالة هذه الألفاظ والجمل على المعاني، سواء في ذلك آيات الخبر والقصص، وآيات الأدب، وآيات الأحكام، وسائر ما اشتملت عليه معاني القرآن. وهو أمر عن (إعجاز القرآن) بمعزل. أما الأمر المرتبط بالشعر الجاهلي، أو بقضايا الشعر جميعاً، والمتصل بأساليب الجاهلية وغير الجاهلية،

وأساليب العربية وغير العربية ومقارنتها بأسلوب القرآن، فهو علم (إعجاز القرآن) ثم (علم البلاغة).

ولا مناص لتكلم في (إعجاز القرآن) من أن يتبين حقيقتين عظيمتين قبل النظر في هذه المسألة، وأن يفصل بينهما فصلاً ظاهراً لا يلتبس، وأن يميز أوضح التمييز بين الوجوه التي تكون بينهما :

أولاهما : أن (إعجاز القرآن) كما يدل عليه لفظه وتاريخه، هو دليل النبي صلى الله عليه وسلم على صدق نبوته، وعلى أنه رسول من الله يوحى إليه هذا القرآن، وأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يعرف (إعجاز القرآن) من الوجه الذي عرفه منه سائر من آمن به من قومه العرب، وأن التحدي الذي تضمنته آيات التحدي، من نحو قوله تعالى: "أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَإِلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ" [هود ١٣-١٤]، وقوله: "قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً" [الإسراء ٨٨]، إنما هو متحد بلفظ القرآن ونظمه وبيانه لا بشيء خارج عن ذلك. فما هو بتحد

بالإخبار بالغيب المكنون، ولا بالغيب الذي يأتي تصديقه بعد دهر
من تنزيله، ولا بعلم مالا يدركه علم المخاطبين به من العرب ولا
بشيء من المعاني مما لا يتصل بالنظم والبيان .

ثانيهما : أن إثبات دليل النبوة، وتصديق دليل الوحي، وأن
القرآن تنزيل من عند الله، كما نزلت التوراة والإنجيل والزبور
وغيرها من كتب الله سبحانه، لا يكون منها شيء يدل على أن
القرآن معجز. ولا أظن أن قائلًا يستطيع أن يقول إن التوراة
والإنجيل والزبور كتب معجزة ، بالمعنى المعروف في شأن إعجاز
القرآن ، من أجل أنها كتب منزلتة من عند الله. ومن البين أن
العرب قد طولبوا بأن يعرفوا دليل نبوة رسول الله. ودليل صدق
الوحي الذي يأتيه ، بمجرد سماع القرآن نفسه، لا بما يجادلهم به حتى
يلزمهم الحجة في توحيد الله ، أو تصديق نبوته ولا بمعجزة
كمعجزات إخوانه من الأنبياء مما آمن على مثله البشر. وقد بين
الله في غير آية من كتابه أن سماع القرآن، يقتضيهم إدراك ميليشته
لكلامهم، وإنه ليس من كلام بشر، بل هو كلام رب العالمين. وبهذا
جاء الأمر في قوله تعالى: "وَلِإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ
فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا
يَعْلَمُونَ" [التوبة ٦].

فالقرآن المعجز هو البرهان القاطع على صحة النبوة، أما صحة النبوة فليست برهاناً على إعجاز القرآن. والخلط بين هاتين الحقيقتين، وإهمال الفصل بينهما في التطبيق والنظر، وفي دراسة (إعجاز القرآن)، قد أفضى إلى تخليط شديد في الدراسة قديماً وحديثاً، بل أدى هذا الخلط إلى تأخر (علم إعجاز القرآن) و(علم البلاغة) عن الغاية التي كان ينبغي أن ينتهيا إليها.

وحسن أن أزيل الآن لبساً قد يقع فيه الدارس لكتاب (الظاهرة القرآنية) ففي (مدخل الدراسة) وفي بعض فصول الكتاب ما يوهم أن من مقاصده تثبيت قواعد في (علم إعجاز القرآن)، من الوجه الذي يسمى به القرآن معجزاً، وهو خطأ، فإن منهج مالك في تأليفه، دالٌّ أوضح الدلالة على أنه إنما عُنِيَ بإثبات صحة دليل النبوة، وبصدق دليل الوحي، وأن القرآن تنزيل من عند الله، وأنه كلام الله لا كلام بشر. وليس هذا هو (إعجاز القرآن) كما أسلفت، بل هو أقرب إلى أن يكون باباً من (علم التوحيد) استطاع مالك أن يبلغ فيه غايات بعيدة، قصر عنها أكثر من كتب من المحدثين وغير المحدثين فجزاه الله عن كتابه ونبيه أحسن الجزاء.

أما مسألة (إعجاز القرآن)، قد بقيت خارج هذا الكتاب، وهي عندي أعقد مشكلة يمكن أن يعانيتها (العقل) الحديث، كما يسمونه حتى بعد أن يتمكن من إرسال كل دعامة يقوم عليها إيمانه بصدق نبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبصدق الوحي، وبصدق التنزيل، وأيضاً فهي المسألة التي ترتبط ارتباطاً وثيقاً بقضية الشعر الجاهلي، وبالكيده الخفي الذي اشتملت عليه هذه القضية، بل إنها لترتبط ارتباطاً لا فكاك له بثقافتنا كلها، وبما ابتلى به العرب في جميع دور العلم، من فرض منهاج خال من كل فضيلة في تدريس اللغة وآدابها. بل إنها لتشمل ما هو أرحب من ذلك، تشمل بناء الإنسان العربي أو المسلم، من حيث هو إنسان قادر على تذوق الجمال في الصورة والفكر جميعاً.

ومعرفة معنى (إعجاز القرآن)، ما هو وكيف كان، أمرٌ لا غنى عنه لمسلم ولا لدارس، وشأنه أعظم من أن يتكلم فيه امرؤ بغير تثبت من معناه، وتمكّن من تاريخه، وتتبع للآيات الدالة على حقيقته. وأنا لا أزعم أنى مستقصيه في هذا الموضوع، ولكنى مستعينٌ بالله، فذاكرٌ طرفاً مما يعين المرء على معرفته.

وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، بأبي هو وأمي، حين فجّئه الوحي في غار حراء، وقال له: (اقرأ) فقال: (ما أنا

بقارئ)، ثم لم يزل به حتى قرأ: "اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ"، رجع بها وهو يَرْجِفُ فؤاده، فدخل على خديجة فقال: (زملوني، زملوني)، فزملوه حتى ذهب عنه الرُّوع. وذلك أنه قد أتاه أمرٌ لا قِبَلَ له به، وسمع مقالا لا عهد له بمثله، وكان رجلا من العرب، يعرف من كلامها ما تعرف، وينكر منه ما تنكر، كان هذا الروح الذي أخذه، بأبي هو وأمي، أول إحساس في تاريخ البشر، بمباعدة هذا الذي سمع، للذي كان يسمع من كلام قومه، والذي كان يعرف من كلام نفسه، ثم همى الوحي وتتابع، وأمره ربه أن يقرأ ما أنزل عليه على الناس، على مُكْتَبٍ. فتتبع الأفراد من عشيرته وقومه، يقرأ عليهم هذا الذي نزل إليه. ولم يكن من برهانه ولا مما أمر به أن يلزمهم الحجة بالجدال، حتى يؤمنوا أنما هو إله واحد، وأنه هو نبي الله، بل طالبهم بأن يؤمنوا بما دعاهم إليه، ويقولوا له بصدق نبوته، بدليل واحد، هو هذا الذي يتلوه عليهم من قرآن يقرؤوه. ولا معنى لمثل هذا المطالبة بالإقرار لمجرد التلاوة، إلا أن هذا المقروء عليهم، كان هو في نفسه آية فيها أوضح الدليل على أنه ليس من كلامه هو، ولا من كلام بشر مثله. ثم أيضاً لا معنى لها البتة إلا أن يكون في طاقة هؤلاء

السامعين أن يميزوا تمييزاً واضحاً بين الكلام الذي هو من نحو كلام البشر، والكلام الذي ليس من نحو كلامهم

وكان هذا القرآن ينزل عليه منجماً، وكان الذي نزل عليه

يومئذ قليلاً كما تعلم، فكان هذا القليل من التنزيل هو بزائه

الفرد على نبوته وإذنه، فقليل ما أوحى إليه من الآيات يومئذ هو

على قلته وقلة ما فيه من المعاني التي تتأمت وتجمعت في القرآن

جملة كما نقرؤه اليوم، منطوق على دليل مستبين قاهر، يحكم له بأنه

ليس من كلام البشر، وبذلك يكون دليلاً على أن تأليته عليهم

وهو بشر مثلهم، نبي من عند الله مُرسل.

فإذا صحَّ هذا، وهو صحيح لا ريب فيه، ثبت ما قلناه أولاً

من أن الآيات القليلة من القرآن، ثم الآيات الكثيرة، ثم القرآن

كله، أي ذلك كان، في تلاوته على سامعه من العرب، الدليل الذي

يطالبه بأن يقطع بأن هذا الكلام مفارق لجنس كلام البشر، وذلك

من وجه واحد هو وجه البيان والنظم.

وإذا صحَّ أن قليل القرآن وكثيره سواء من هذا الوجه، ثبت

أن ما في القرآن جملة من حقائق الأخبار عن الأمم السالفة، ومن

أنباء الغيب، ومن دقائق التشريع، ومن عجائب الدلالات على ما

لم يعرفه البشر من أسرار الكون إلا بعد القرون المتطاولة من

تنزيله، كل ذلك بمعزل عن الذي طولب به العرب، وهو أن يستبينوا في نظمه وبيانه، انفكاكه من نظم البشر وبيانهم، من وجه يحسم القضية بأنه كلام رب العالمين وههنا معنى زائد، فإنهم إذا أقرّوا أنه كلام رب العالمين بهذا الدليل، كانوا مطالبين بأن يؤمنوا بأن ما جاء فيه من أخبار الأمم، وأنبله الغيب، ودقائق التشريع، وعجائب الدلالات على أسرار الكون، هو كله حقٌّ لا ريب فيه، وإن ناقض ما يعرفون، وإن باين ما اتفقوا على أنه عندهم أو عند غيرهم حق لا يشكون فيه. وإذن، فإقرارهم من وجه النظم والبيان أن هذا القرآن كلام رب العالمين، دليل يطالبهم بالإقرار بصحة ما جاء فيه من كل ذلك، أما صحة ما جاء فيه فليست هي الدليل الذي يطالبهم بالإقرار بأن نظم القرآن وبيانه، مباين لنظم البشر وبيانهم، وأنه بهذا من كلام رب العالمين وهذا أمر في غاية الوضوح.

فمن هذا الوجه كما ترى طولب العرب بالإقرار والتسليم، ومن هذا الوجه تحيرت العرب فيما تسمع من كلام يتلوه عليهم رجل منهم، تجده من جنس كلامها لأنه نزل بلسانهم، لسان عربي مبين، ثم تجده مباينا لكلامها، فما تدري ما تقول فيه من طغيان اللدد والخصومة. وإنه لخبر مشهور، خبرٌ تحير النفر من

قريش ، على رأسهم الوليد بن المغيرة، لقد ائتمرت قريش يومئذ حين الموسم، لكي يقولوا في هذا الذي يتلى عليهم وعلى الناس قولاً واحداً لا يختلفون فيه، وأداروا الرأي بينهم في تاليه على أهل الموسم ، وتشاوروا أن يقولوا : كاهن، أو مجنون، أو شاعر، أو ساحر ، فلما آلت المشورة إلى ذي رأيهم وسنهم، وهو الوليد بن المغيرة، رد كل ذلك بالحجة عليهم، ثم قال : "والله إن لقوله لحلاوة وإن أصله لعذق، وإن فرعه لجناة، وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عُرِف أنه باطل، وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا : ساحر جله بقول يفرق بين المرء وأبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجته، وبين المرء وعشيرته".

فهذا التحير المظلم الذي غشاهم وأخذ منهم بالكظم، والذي نعتة الوليد فاستجاد النعت، كان تحييراً لما يسمعون من نظمه وبيانه، لا لما يدركون من دقائق التشريع، وخفي الدلالات، وما لا يؤمنون به من الغيب، وما لا يعرفون من أنبل القرون التي خلت من قبل.. وحَمَى الوحي وتتابع عاماً بعد عام، وأقبل صلى الله عليه وسلم يلح جهرة، فيقرأ القرآن عليهم وعلى من طاف بهم من العرب في بطن مكة، وفي مواسم الحج والأسواق، وهبت قريش تناوئه وتنازعه، وتلجج في اللدد والخصومة، وفي الإنكار

والتكذيب، وفي العداوة والأذى، فلما طال تكذيبهم وإنكارهم، على ما يجحدون في أنفسهم من مثل الذي وجد الوليد، ومن مثل الذي آمن عليه من آمن من قومه العرب، صب الله عليهم من الوحي ما هالهم وأفزعهم. كانوا يتحIRON في هذا الذي يتلى عليهم، فزادهم تكذيبهم حيرة، فتحداهم بأن يأتوا بمثل هذا الذي يتلى عليهم، وظل رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ثلاثة عشر عاماً، والمسلمون قليل مستضعفون في أرض مكة، وظل الوحي يتتابع وهو يتحداهم أن يأتوا بمثل هذا القرآن، ثم بعشر سور مثله مفتريات. فلما انقطعت قواهم، قطع الله عليهم وعلى الثقلين جميعاً منافذ اللدد والعناد، فقال: "قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً" [الإسراء ٨] وكذلك كان!

فكان هذا البلاغ القاطع الذي لا معقب له، هو الغاية التي انتهى إليها أمر هذا القرآن، وأمر النزاع فيه، لا بين رسول الله وبين قومه من العرب فحسب، بل بينه وبين البشر جميعاً على اختلاف ألسنتهم وألوانهم، لا .. بل بينه وبين الإنس والجن مجتمعين متظاهرين. وهذا البلاغ الحق لا معقب له من بين يديه ولا من خلفه، هو الذي اصطلحنا عليه فيما بعد، وسميناه (إعجاز القرآن).

وهذا الذي اقتصرته لك، تاريخ مختصر أشد الاختصار، ولكنه مجزئ في الدلالة على تحديد معنى (إعجاز القرآن) بالمعنى الذي يفهم من هذا اللفظ على إطلاقه، ومجزئ في الدلالة على هذا (الإعجاز) من أي وجوه الإعجاز كان إعجازًا، وإنه ليكشف عن أمور لا غنى لدارس عن معرفتها :

الأول: أن قليل القرآن وكثيره في شأن (الإعجاز) سواء الثاني: أن (الإعجاز) كائن في رصف القرآن وبيانه ونظمه، ومباينة خصائصه للمعهود من خصائص كل نظم وبيان في لغة العرب، ثم في سائر لغات البشر، ثم في بيان الثقلين جميعًا، انسهم وجهتهم متظاهرين :

الثالث: أن الذين تحداهم بهذا القرآن، قد أوتوا القدرة على الفصل بين الذي هو من كلام البشر، والذي هو ليس من كلامهم.

الرابع: أن الذين تحداهم به كانوا يدركون أن ما طولبوا به من الإتيان بمثله، أو بعشر سور مثله مفتریات، هو هذا الضرب من البيان، الذي يجدون في أنفسهم أنه خارج من جنس بيان البشر.

الخامس: أن هذا التحدي لم يقصد به الإتيان بمثله مطابقًا

لمعانيه، بل أن يأتوا بما يستطيعون افتراءه واختلاقه من كل معني أو غرض، مما يعتلج في نفوس البشر .

السادس : أن هذا التحدي للثقلين جميعاً إنسهم وجنهم متظاهرين، تحد مستمر قائم إلى يوم الدين .

السابع : أن ما في القرآن من مكنون الغيب، ومن دقائق التشريع، ومن عجائب آيات الله في خلقه، كل ذلك بمعزل عن هذا التحدي المفضي إلى الإعجاز وإن كان ما فيه من ذلك يعد دليلاً على أنه من عند الله تعالى ، ولكنه لا يدل على أن نظمه وبيانه مباين لنظم كلام البشر وبيانهم، وأنه بهذه المباينة كلام رب العالمين ، لا كلام بشر مثلهم.

فهذه أمور تستخرجها دراسة تاريخ نزول القرآن، ومدارسة آياته في جدال المشركين من العرب في صحة الآيات التي جاءتهم من السماء، كما جاءت سائر آيات الأنبياء ومعجزاتهم، وحسبك في بيان ذلك ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ما من نبي إلا وأوتى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحى إلى ، فأنا أرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة) فالقرآن هو آية الله في الأرض، آيته المعجزة من الوجه الذي كان به معجزاً للعرب ، ثم البشر، ثم للثقلين جميعاً .

وكل لبس يقع في ضبط هذه الأمور المتعلقة بمعنى (إعجاز القرآن) وكل اختلال في تمييزها وتحديد ما تقضيه في العقل والنظر، سبيل إلى انتشار أغمض اللبس، وأبلغ الخلل في فهم معنى (إعجاز القرآن) من الوجه الذي صار به القرآن معجزاً للعرب، ثم لسائر البشر على اختلاف ألسنتهم، ثم للثقلين جميعاً متظاهرين.

هذا بعض ما أدى إليه النظر المجرد في استخراج المعنى الذي هو مناط التحدي، ومفصل الإعجاز، وأرجو أن أكون قد بلغت في كشفه مقنعا ورضى. ولكن بقى ما لا بدّ منه: أن نستنبط بهذا الأسلوب من النظر المجرد، صفة القوم الذين تحداهم، و صفة لغتهم.

فإذا صح أن (الإعجاز) كائن في رصف القرآن ونظمه وبيانه بلسان عربي مبين، وأن خصائصه مباينة للمعهود من خصائص كل نظم وبيان تطيقه قوى البشر في بيانهم، لم يكن لتحديهم به معنى إلا أن تجتمع لهم وللغتهم صفات بعينها:

أولها: أن اللغة التي نزل بها القرآن معجزاً، قادرة بطبيعتها هي، أن تحتمل هذا القدر الهائل من المفارقة بين كلامين: كلام هو الغاية في البيان فيما تطيقه القوى، وكلام يقطع هذه القوى ببيان ظاهر المباينة له من كل الوجوه.

ثانيها : أن أهلها قادرون على إدراك هذا الحجاز الفاصل بين الكلامين. وهذا إدراك دالٌّ على أنهم قد أتوا من لُطف تذوق البيان، ومن العلم بأسراره ووجوهه، قدرًا وافرًا يصح معه أن يتحداهم بهذا القرآن، وأن يطالبهم بالشهادة عند سماعه، أن تاليه عليهم نبي من عند الله مُرسل .

ثالثها : أن البيان كان في أنفسهم أجلّ من أن يخونوا الأمانة فيه، أو يجوروا عن الإنصاف في الحكم عليه. فقد قرَّعهم وعيَّرههم وسفَّه أحلامهم وأديانهم، حتى استخرج أقصى الضراوة في عداوتهم له، وظل مع ذلك يتحداهم، فنهتهم أمانتهم على البيان عن معارضته ومناقضته، وكان أبلغ ما قالوه: (؟؟؟)، ولكنهم كفوا ألسنتهم فلم يقولوا شيئًا. هذه واحدة. وأخرى أنه لم ينصب لهم حكمًا، بل خلَّى بينهم وبين الحكم على ما يأتون به معارضين له، ثقة بإنصافهم في الحكم على البيان، فهذه التخلية مرتبة من الإنصاف لا تدانيها مرتبة .

رابعها : أن الذين اقتندروا على مثل هذه اللغة، وأوتوا هذا القدر من تذوق البيان، ومن العلم بأسراره، ومن الأمانة عليه، ومن ترك الجور في الحكم عليه، يوجب العقل أن يكونوا كانوا قد بلغوا في الإعراب عن أنفسهم، بألسنتهم المينة عنهم، مبلغًا لا يداني .

وهذه الصفات تفضي بنا إلى التماس ما ينبغي أن تكون عليه صفة كلامهم، إن كان بقى من كلامهم شئ، فالنظر المجرد أيضاً، يوجب أمرين في نعت ما خلفوه:

الأول : أن يكون ما بقى من كلامهم، شاهداً على بلسوغ لغتهم غاية من التمام والكمال والاستواء، حتى لا تعجزها الإبانة عن شئ مما يعتلج في صدر كل مبین منهم .

الثاني : أن تجتمع فيه ضروب مختلفة من البيان لا يجزئ أن تكون دالة على سعة لغتهم وتمامها ، بل علي سجاختها أيضاً، حتى تلين لكل بيان تطبيقه ألسنة البشر على اختلاف ألسنتهم .
فهل بقى من كلامهم شئ يستحق أن يكون شاهداً على هذا ودليلاً ؟... نعم، بقى (الشعر الجاهلي) !

وإذن ؟!... إذن ينبغي أن نعيد تصور المشكلة وتصويرها. فإن النظر المجرد، والمنطق المتساوق، والتمحيص المتتابع، كل ذلك قد أفضى بنا إلى تجريد معنى (إعجاز القرآن) مما شابه وعلق به؛ حتى خلص لنا أنه من قبل النظم والبيان، ثم ساقنا الاستدلال إلى تجديد صفة القوم الذين تحداهم وصفة لغتهم، ثم خرج بنا إلى طلب نعت كلامهم، ثم التمسنا الشاهد والدليل على الذي أدانا إليه النظر ، فإذا هو ... (الشعر الجاهلي) .

وإذن ؛ فالشعر الجاهلي، هو أساس مشكلة (إعجاز القرآن)
كما ينبغي أن يواجهها العقل الحديث، وليس أساس هذه المشكلة
هو تفسير القرآن على المنهج القديم، كما ظنَّ أخي مالك، وكما
يذهب إليه أكثر من بحث أمر إعجاز القرآن على وجه من
الوجوه.

ولكن (الشعر الجاهلي) قد صُبَّ عليه بلاء كثير، آخرها
وأبلغها فسادا وإفسادا، ذلك المنهج الذي ابتدعه مرجليوث
لينسف الثقة به، فيزعم أنه شعر مشكوك في روايته، وأنه موضوع
بعد الإسلام، وهذا المكر الخفي الذي مكره مرجليوث وشيعته
وكهنته، والذي ارتكبوا له من السفسطة والغش والكذب ما
ارتكبوا، كما شهد بذلك رجل من جنسه، هو آربري ؛ كان يطوى
تحت أدلته ومناهجه وحججه، إدراكاً لمنزلة الشعر الجاهلي في شأن
إعجاز القرآن، لا إدراكاً صحيحاً مستبيناً، بل إدراكاً خفياً مبهماً ؛
تخالطه ضغينة مستكنة للعرب وللإسلام.

وهذا المستشرق وشيعته وكهنته، كانوا أهون شأنًا من أن
يحوزوا كبيراً بمنهجهم الذي سلوكه، وأدلتهم التي احتطبوها، لما في
تشكيكهم من الزيف والخداع. ولكنهم بلغوا ما بلغوا من
استضافة مكرهم، وتغلغله في جامعاتنا، وفي العقل الحديث في

العالم الإسلامي، بوسائل أعانت على نفاذهم، ليست من العلم ولا من النظر الصحيح في شئ، وقد استطاع رجال من أهل العلم، أن يسلكوا إلى إثبات صحة الشعر الجاهلي، مناهج لاشك في صدقها وسلامتها، بلا غش في الاستدلال، وبلا خداع في التطبيق، وبلا مراء في الذي يسلم به صريح العقل وصريح النقل، إلا أنهم لم يملكوا بعد من الومائل ما يتيح لهم أن يبلغوا بحقهم ما بلغ أولئك بباطلهم.

وقد ابتليت أنا بمحنة (الشعر الجاهلي) عندما ذرّ قرون الفتنة، أيام كنت طالباً في الجامعة، ودارت بي الأيام حتى انتهيت إلى ضرب آخر من الاستدلال على صحة (الشعر الجاهلي) لا عن طريق روايته وحسب، بل من طريق أخرى هي الصق بأمر (إعجاز القرآن)، فإني محصت ما محصت من الشعر الجاهلي، حتى وجدته يحمل هو نفسه في نفسه أدلة صحته وثبوتة، إذ تبينت فيه قدرة خارقة على (البيان)، وتكشف لي عن روائع كثيرة لا تحصى، وإذا هو علم فريد منصوب، لا في أدب العربية وحدها، بل في آداب الأمم قبل الإسلام وبعد الإسلام. وهذا الانفراد المطلق، ولا سيما انفراده بخصائصه عن كل شعر بعده من شعر العرب أنفسهم، هو وحده دليل كاف على صحته وثبوتة.

ولقد شغلني (إعجاز القرآن) كما شغل العقل الحديث ،
ولكن شغلني أيضاً هذا (الشعر الجاهلي) وشغلني أصحابه ، فأداني
طول الاختبار والامتحان والمدايسة إلى هذا المذهب الذي ذهبت
إليه ، حتى صار عندي دليلاً كافياً على صحته وثبوتة ، فأصحابه
الذين ذهبوا ودرجوا وتبددت في الثرى أعيانهم ، رأيتهم في هذا
الشعر أحياه ، يغدون ويروحون ، رأيت شابههم ينزوا به جهله ،
وشيخهم تدلف به حكمته ، ورأيت راضيههم يستنير وجهه حتى
يشرق ، وغاضبههم تربد سحنته حتى تظلم ، ورأيت الرجل
وصديقه ، والرجل وصاحبه ، والرجل الطريد ليس معه أحد ،
ورأيت الفارس على جواده ، والعاذي على رجليه ، ورأيت
الجماعات في مبداهم ومحضرهم ، فسمعت غزل عشاقهم ، ودلال
فتياتهم ، ولاحت لي نيرانهم وهم يصطلون ، وسمعت أنين باكيهم
وهم للفراق مززعجون ، كل ذلك رأيته وسمعته من خلال ألفاظ
هذا الشعر ، حتى سمعت في لفظ الشعر همس الهامس ، وبحة
المستكين ، وزفرة الواجد ، وصرخة الفزع ، وحتى مثلوا بشعرهم
نصب عيني ، كأنني لم أفقدهم طرفة عين ، ولم أفقد منازلهم
ومعاهدهم ، ولم تغب عني مذاهبهم في الأرض ، وحتى كاشفوني
فلم يطووا عني شيئاً مما عاينوه وأبصروا ، ولا مما أحسوا ووجدوا ،

ولا مما سمعوا وأدركوا، ولا مما قاسوا وعانوا، ولا خفي عنى شئ مما يكون به الحي حيا في هذه الأرض التي بقيت في التاريخ معروفة باسم (جزيرة العرب)

وهذا الذي أفضيت إليه من صفة الشعر الجاهلي كما عرفت، أمر ممكن لمن اتخذ لهذه المعرفة أسبابها، بلا خلط ولا لبس ولا تهاون ولا ملل. وهذه المعرفة أول الطريق إلى دراسة شعر أهل الجاهلية، من الوجه الذي يتيح لنا أن نستخلص منه دلالاته أنه شعر قد انفرد بخصائصه عن كل شعر جاء بعده من شعر أهل الإسلام، فإذا صح ذلك، وهو عندي صحيح لا أشك فيه، وجب أن ندرس هذا الشعر دراسة متعمقة، ملتصقين فيه هذه القدرة البيانية التي يمتاز بها أهل الجاهلية ممن جاء بعدهم، ومستنبطين من ضروب البيان المختلفة التي أطاقتها قوى لغتهم وألستهم. فإذا تم لنا ذلك، فمن الممكن القريب يومئذ أن نتلمس في القرآن الذي أعجزهم بيانه، خصائص هذا البيان المفارق لبيان البشر

وهنا أمر له خطر عظيم، فلا تظن أن الشأن في دراسة (الشعر الجاهلي) هو شأن المعاني التي تناولها، والأغراض التي قيل فيها، والصور التي انطوى عليها، واللغة التي استخدمها من حيث الفصاحة والعدوبة وما يجري مجراها، بل الشأن في ذلك أبعد

وأعمق وأعوص ؛ إنه تمييز القدرة على البيان، وتجريد ضروب هذا (البيان) على اختلافها، واستخلاص الخصائص التي أتاحت للغتهم أن تكون معدنا للسمو ، بالإبانة عن جوهر إحساسهم ، سموًا يجعل للكلام حياة كنفخ الروح في الجسد القائم ، وكقوة الإبصار في العين الجامدة، وكسجية النطق في البضعة المتجلجة المسماة باللسان .

فإذا اتخذنا لهذه الدراسة أهبتها، وأعدنا لها من الصبر والجد والحذر ما ينبغي لها، واللسان لساننا، والقوم أسلافنا، والسلائق مغروزة في أعماق طباعنا، ثم أصلنا للدراسة مناهج تعين عليها، واستحدثنا لها أسلوبا يلائمها، فعندئذ يدنو الذي نراه بعيدًا، وينجلي لنا ما كان غامضًا، ويكشف لنا (الشعر الجاهلي) عن أروع روائعه، ويبدل لنا ما استكن فيه واستتر من أصول (البيان) الإنساني، بغير تخصيص للغة العرب. فنراها ماثلة على أدق وجوهه وأغمضها، وفي أتم صوره وأكملها .

وهذا الذي أفضت فيه من ذكر الشعر الجاهلي، وما وجدته فيه في نفسي، باب عظيم ، أسأل الله أن يعينني بحوله وقوته، حتى أكشف عنه وأجليه، وحتى أؤيده بكل برهان قاطع على تميزه عن كل شعر العرب بعده، وبذلك يكون هو نفسه دليلًا حاسمًا على

صحة روايته، وعلى أن الرواة لم ينحلوه الشعراء افتراء عليهم :
وغير خاف أن الذي وصلنا إلى هذا اليوم من شعر
الجاهلية، قليل مما روته الرواة منه، والرواة القدمله أنفسهم لم
يصلهم من شعرها إلا الذي قال أبو عمرو بن العلاء، في أوائل
القرن الثاني من الهجرة: "ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا
أقله، ولو جاءكم وافرا جاءكم علم وشعر كثير".

ومع ذلك فهذا القليل مجزئ إن شاء الله في الدلالة على ما
نريد من الإبانة عن تميز شعرهم عن شعر من جاء بعدهم، وفيه
جَمُّ وافٍ من خصائص البيان التي امتاز بها أهل الجاهلية.
ولكن، كيف بقي هذا الشعر إلى يومنا هذا ؟... بقي مادة
للغة العرب، وشاهدا على حرف من العربية، وعلى باب من
النحو، وعلى نكتة في البلاغة، وبقي ذخرا للرواة وركازا يستمد
منه شعراء الإسلام، ومنبعًا لتاريخ العرب في الجاهلية، بل بقي
كنزا لعلوم العرب جميعًا، لكل علم منه نصيب على قدره. ولكن
غاب عنا أعظم ما بقي لهذا الشعر: أن يكون مادة لدراسة البيان
المفطور في طبائع البشر، مقارنًا بهذا (البيان) الذي فأت طاقة
بلغه الجاهلية، وكانت له خصائص ظاهرة، تجعل كل مقتدر بليغ
مبين، وكل متذوق للبلاغة والبيان، لا يملك إلا الإقرار له، بأنه
من غير جنس ما يعده سمعه وذوقه، وأن مبلغه إلى الناس نبي

مُرْسَل ، وأنه لا يطيق أن يخلقه أو يفتره ، لأنه بشر لا يدخل في طوقه إلا ما يدخل مثله في طوق البشر، وأنه إن تقوّل غير ما أمر بتبليغه وتلاوته، بأن للبشر كذبه، وحق عليه قول منزله من السماء سبحانه: " وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ " [الحاقة ٤٤-٤٧]

ولسائل أن يسأل : فحدثني إذن، لم بقى شعر الجاهلية بهذه المنزلة لم يتجاوزها...؟ .. وكيف غاب هذا الذي زعمت عن أئمة العلم من قبلك ؟.. وكيف أخطأه علماء البلاغة، وهم الذين قصدوا بعلمهم قصد الإبانة عن إعجاز القرآن، وهم أقرب بالتنزيل عهداً منا ومنك ؟ .. وما الذي صد العقول البليغة عن سلوك هذا المنهج ، وما نهضت إلا للمرامة دون إعجاز القرآن، في القديم والحديث ؟

وحق على أن أجيب، ولكن يقتضي جواب هذه المسألة أن اقتصر قصة أخرى، لا أستوعب القول في حكايتها تفصيلاً، بل أوجز المقال فيها إيجازاً مدفوعاً عنه الخلل ما أطق، وعلى سامعها أن يدفع عن نفسه الغفلة ما أطاق!

فأهل الجاهلية، هم من وصفت لك منزلتهم من البيان، وقدرتهم على تصريفه بألسنتهم وتمكنهم من تذوقه بأدق حاسة في قلوبهم ونفوسهم وعلمهم بأسرارهم، وتغلغلهم في إدراك

الحجاز الفاضل بين ما هو من نحو بيان البشر، وما ليس من نحو بيانهم، أهل الجاهلية هؤلاء، هم الذين جاءهم كتاب من السماء بلسانهم، هو في آيات الله بمنزلة عصا موسى، وإبراء الأكمه والأبرص في آيات أنبيائه، لتكون تلاوته على أسماعهم على قلب رجل منهم، وأن هذا الرجل نبي مُرسل، عليهم أن يتبعوه ويستجيبوا لما دعاهم إليه، فلما كذبوه وأنكروا نبوته تحداهم أن يأتوا بمثل هذا الذي يسمعون في نظمه وبيانه، وألح عليهم يتحداهم في آيات منه كثيرة، ولكنهم أجمعوا ألسنتهم إجماعا حسن معارضته في بيانه، لأنهم وجدوا في أنفسهم مفارقة لبيان البشر وجدانا لأجأهم إلى ترك المعارضة، إنصافا للبيان أن يحار على حقه، وتنزيها له أن يزرى به جورهم عن هذا الحق.

وعلى الذي تلقوه به من اللدد في الخصومة والعناد، لم يلبث أن استجاب له التفرد بعد التفرد، إقرارا وتسليما بأن الكتاب كلام الله، وأن الرجل نبي الله، ثم تتابع إيمان المؤمنين منهم، حتى لم يبق دار من دور أهل الجاهلية إلا دخلها الإسلام أو عمها، وألقوا إليه المقادة، على أنه لا يتم إيمان أحدهم حتى يكون هو تبع للذي جاء به، وأنه لن يؤمن أحدهم حتى يكون هذا الرجل، بأبي هو وأمي أحب إليه من أهله وولده. وهذه أعمالهم تصدق ذلك كله.

فأقبل كل بليغ منهم مبين، وكل متذوق للبيان ناقد، يتحفظ ما نزل من القرآن ويتلوه ويتعبد به، ويتتبع تنزيله تتبع الحريص المتلهف، ويصيخ له وينصت حين يتلى في الصلوات وعلى المنابر، يوماً بعد يوم، وشهراً بعد شهر، وعاماً بعد عام، وكلهم غبت خاشع لذكر الله وما نزل من الحق، يُصدق إخباراتهم وخشوعهم، ما قال الله سبحانه وتعالى: "اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ" [الزمر ٢٣]

ثم صار للقرآن في جزيرة العرب دوىً كدوي للنحل، وخشعت أسماع للجاهلية كانت بالأمس، للذي يتلى عليهم من كلام الله الذي خلقهم، وجعل لهم السمع والأبصار والأفئدة، وأخبت ألسنة للجاهلية كانت بالأمس، إقراراً لهذا القرآن بالعبودية، وماجت بهم جزيرة العرب مهللين مكبرين مسبحين، كلما علوا شرفاً أو هبطوا وادياً، وأقاموا تالين للقرآن بالغدو والاصال، وبالليل والأسحار، وانطلقوا يتتبعون سنن نبيهم ويتلقفونها، وخلعوا عن قلوبهم، ونفوسهم، وعقولهم، وألسنتهم ظلمة الجاهلية، ودخلوا بألسنتهم وعقولهم ونفوسهم وقلوبهم في نور الإسلام.

ثم طار بهم هذا القرآن في كل وجه، يدعون الناس
أسودهم وأحمرهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول
الله، ويحملون إليهم هذا الكتاب المعجز بيانه لبيان البشر، والذي
نزل بلسانهم حجة على الخلق، وهُدًى يخرجهم من الظلمات إلى
النور. فكان من أمرهم يومئذ ما وصفه ابن سلام في كتاب
(طبقات فحول الشعراء) حين ذكر مقالة عمر بن الخطاب في أهل
الجاهلية : (كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه). فقال
ابن سلام تعليقا على ذلك : (فجاء الإسلام فتشاغلت عنه العرب،
وتشاغلوا بالجهاد وغزو فارس والروم، ولهت عن الشعر وروايته ،
فلما كثر الإسلام، وجاءت الفتوح، واطمأنت العرب في الأمصار،
راجعوا رواية الشعر ، فلم يؤولوا إلى ديوان مدون، ولا كتاب
مكتوب. وألفوا ذلك، وقد هلك من العرب من هلك بالموت
والقتل، فحفظوا أقل ذلك، وذهب عليهم منه كثير).

ولا يغرك ما قال ابن سلام، فتحسب أن أهل الجاهلية
الذين هداهم الله للإسلام، طرحوا شعر جاهليتهم. دبر آذانهم ،
فانصرفوا عنه صما وبكما، وخلعوه عن عقولهم وألستهم كما
خلعوا جاهليتهم، فهذا باطل تكذبه أخبارهم، وينقضه منطق
طبائع البشر، وتاريخ حياتهم ، بل كان أكبر ما لحقه من الضيم: أن

نازعه القرآن صرف همهم إليه، فكان نصيبه من إنشادهم وتقصيدهم القصائد، أقل مما كان في جاهليتهم، ولكنه بقى مع ذلك هو الذي يؤبون إليه إذا شق عليهم طول مدارس القرآن، وهو الذي يستريحون إليه إذا فرغوا مما فرض عليهم ربهم، وسن لهم نبيهم صلى الله عليه وسلم. وظل ذلك دأبهم في أول إسلامهم، ونشأ أبناءهم يسمعون منهم شعر جاهليتهم، ويستمعون إلى مكنوز بيانهم في ألسنتهم، فيخرجون أيضاً مركز ذلك البيان في طباعهم، وينتقل ذلك بما يشبه العدوى إلى مُسْلِمَة الأعاجم وأبنائهم.

وحيث نزل أهل الجاهلية الذين أسلموا، نزل معهم الذكر الحكيم، ونزل شعر الجاهلية وتدارسوه وتناشدوه، وقوموا به لسان الذين أسلموا من غير العرب. وأصبح زاد المتفقه في معرفة معاني كتاب ربه، هو مدارس الشعر الجاهلي، لأنه لا يستقل أحد بفهم القرآن حتى يستقل بفهمه. وحسبك أن تعرف مصداق ذلك قول الشافعي فيما بعد، في القرن الثاني من الهجرة: "لا يحل لأحد أن يفتى في دين الله، إلا رجلاً عارفاً بكتاب الله، بناسخه ومنسوخه، ومحكمه ومتشابهه، وتأويله وتنزيله، ومكيه ومدنيه، وما أريد به. ويكون بعد ذلك بصيراً بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم،

وبالناسخ والمنسوخ ، ويعرف من الحديث مثل ما عرف من القرآن، ويكون بصيراً باللغة، بصيراً بالشعر، وما يحتاج إليه للسنة والقرآن". فليس يكفى أن يكون عارفاً بالشعر، بل بصيراً به أشد البصر، كما قال الشافعي رحمه الله، والذي قاله الشافعي بعد قرن، هو الذي جرى عليه في أول الإسلام .

واستفاضت بالمسلمين الفتوح، واستفاض معهم شعر جاهليتهم، وأسلمت الأمم ودخلت في العربية كما دخلت في الإسلام، ونزل بيان القرآن كالغيث على فطرة جديدة، فطرة أهل الألسنة غير العربية، بعد أن رويت من بيان الجاهلية في الشعر الجاهلي. وامتزجت العرب من الصحابة والتابعين وأبنائهم، بأهل هذه الألسنة التي دخلت في العربية، فنشأ من امتزاج ذلك كله بيانٌ جديد، ظل ينتقل ويتغير ويتبدل، جيلاً بعد جيل، ولكن بقي أهله بعد ذلك كله، محتفظين بقدرة عنيدة حاضرة ؛ هي تذوق البيان تذوقاً عليماً، يعينهم على تمييز بيان البشر كما تعهده سلائقهم وفطرهم، من بيان القرآن الذي يفارق خصائص بيانهم من كل وجه .

ثم فارت الأرض بالإسلام من حد الصين شرقاً إلى حد الأندلس غرباً، ومن حد بلاد الروم شمالاً إلى حد الهند جنوباً،

وسَمِع دوى القرآن العربي في أرجاء الأرض المعمورة. وقامت المساجد في كل قرية ومدينة، وازدحمت في ساحاتها صفوف عباد الرحمن، وعلا منابرها الدعاة إلى الحق، وتحلَّقت الحِلَق في كل مسجد، وتداعى إليها طلاب العلم، فطائفة تتلقى القرآن من قرائه، وطائفة تدرس تفسير آياته، وطائفة تروى حديث رسول الله عن حفاظه، وطائفة تأخذ العربية عن شيوخها، وطائفة تتلقف شعر الجاهلية والإسلام عن رواته، طوائف بعد طوائف في أنحاء المساجد المتدانية، طوائف من كل لون وجنس ولسان، كلهم طالب علم، وكلهم يتنقل من مجلس شيخ إلى مجلس شيخ آخر، فكل ذلك علم لا يستغني عنه مسلم تال للقرآن. لا بل، حتى أسواقهم قام الشعراء ينشدون شعرهم، أو يتنافرون به ويتهاجون، والرواة تحفظ، والناس يقبلون ينصتون، وينقلبون يتجادلون، وعجَّت نواحي الأرض بالقرآن وباللسان العربي، لا فرق بين ديار العجم كانت وديار العرب.

وبعد دهر نبتت نابتة الشيطان في أهل كل دين، وجهلوا بالمرأة والجدل، وباللدد والخصام، وشققوا الكلام بالرأي والهوى، فتشأت بوادر من النظر في كل علم، وعندئذ نجم الخلاف، وانتهى الخلاف إلى الجراءة، وأفضت الجراءة يوما إلى رجل في أواخر دولة

بنى أمية، يقال له (الجمعد بن درهم)، كان شيطاناً خبيث المذهب ،
تلقى مذهبه عن رجل من أبناء اليهود، يقال له: (طالوت) ؛ فكذب
القرآن في اتخاذ إبراهيم خليلاً، وفي تكلم موسى ، إلى هذا وشبهه،
وكان من قوله: إن فصاحة القرآن غير معجزة وإن الناس قادرون
على مثلها وأحسن منها !! .. فضحى به خالد بن عبد الله القسري
في عيد الأضحى، في نحو سنة ١٢٤ من الهجرة. وكلام الجمعد كما
ترى، استطالة رجل جرى اللسان ، خبيث المنبت، بلا حجة من
تاريخ أو عقل.

ولم تكد دولة بنى العباس ترسى قواعدها حتى دخلت
بعض العقول إلى فحوص (إعجاز القرآن)، من باب غير السيفه
والاستطالة، فقام بالأمر كهف المعتزلة ولسانها: (أبو اسحق
إبراهيم بن سيار النظام) فأتاه من قبل الرأي والنظر، حتى زعم
أن الله قد صرف العرب عن معارضة القرآن، مع قدرتهم عليها،
فكانت هذه (الصَّرْفَة) هي المعجزة، أما معجزة القرآن، فهي في
إخباره بكل غيب مضى، وكل غيب سيأتي. وهذه مقالة لا أصل لها
إلا الخيرة والانبهار من هذا الذي أعجز أهل الجاهلية وأسكتهم.
وهب قوم يعارضونه ويمادونه، منهم صاحبه أبو عثمان الجاحظ،
فألف كتابه في (نظم القرآن) وأنه غاية في البلاغة، وقال الجاحظ

وغيره ومن يليهم، ولكن ظل الأمر محصوراً في إثبات (الصَّرْفَة) أو إبطالها، وفي طرف من الاستدلال على بلاغة القرآن وسلامته مما يشين لفظه، وخلوه من التناقض، واشتماله على المعاني الدقيقة، وما فيه من نبأ الغيب، إلى آخر ما تجده مبسوطاً في كتب القوم. والذي عرفت قولنا فيه فيما مضى من كلامنا .

ثم كثرت اللجاجة بين هذه الفئات ممن عُرِفُوا باسم (المتكلمين) وكان أمرهم أمر جدال وبسطة لسان. وغلبة حجة، ومناهضة دليلٍ بدليل، حتى إذا صارت مسألة (إعجاز القرآن) مسألة تستوجب أن ينبري لها رجل صادق، انبرى لهؤلاء المتكلمين (أبو بكر الباقلاني) (المتوفى سنة ٤٠٣)، والناس يومئذ بين رجلين كما قال هو نفسه : (ذاهب عن الحق، ذاهل عن الرشد، وآخر مصدود عن نصرته، مكدود في صنعته فقد أدى ذلك إلى خوض الملحد في أصول الدين، وتشكيكهم أهل الضعف في كل يقين... وذكر لي عن بعض جهالهم أنه جعل يعدله ببعض الأشعار، ويوازن بينه وبين غيره من الكلام، ولا يرضى بذلك حتى يفضل عليه وليس هذا ببدع من ملحدة هذا العصر. وقد سبقهم إلى عَظْم ما يقولون إخوانهم من ملحدة قريش وغيرهم)، (كتابه: إعجاز القرآن ص ٦٠٥) فهذا هو الذي حفزه وأهأجه ، حتى كتب كتابه المعروف (إعجاز القرآن) .

وكتب الباقلانى كتابه وأهل اللسان العربى يومئذ هم
الناس ، ولم يزل تذوقهم للبيان ما وصفت لك ، تذوق ملتبس
بالطباع ، مردود إلى السلائق ، مشحود بمدارسة الشعر وبهاجته
وروايته. ولكن لم يضر جمهور هذه الطباع شيئاً ، أن استفاض الجدل
وظهر سلطانه ، وأن صارت كل فرقة تمضغ كلاماً ، تناضل به عن
رأيها. وتقطع به حجة خصمها، طلباً للغلبة، لا تمحيصاً للرأي ،
وفحصاً عن الحق.

ورضى الله عن أبى بكر الباقلانى، فقد جمع في كتابه تحيراً
كثيراً، واستفتح بسليم فطرته أبواباً كانت قبله مغلقة، وكشف عن
وجوه البلاغة حجاباً مستوراً. ولكنه زل زلة كان لها بعد ذلك آثار
متلاحقة ، وإن لم يقصد بها هو قصد العاقبة التي انتهت إليها.

كان الباقلانى حقيقاً أن ينهج النهج الذي أدانا إليه
تمحيص مسألة (الإعجاز) ، ويومئذ يجعل الشعر الجاهلي أصلاً في
دراسة بيان عرب الجاهلية، من ناحية تمثيله لخصائص بيان البشر،
والباقلانى رضى الله عنه كان يجد في نفسه وجدانا واضحا أن
خصائص بيان القرآن مفارقة لخصائص بيان البشر، وقد ألح إلى
ذلك في كتابه ، كما ألح إليه من سبقه. بيد أن جدل المتكلمين قبله
وعلى عهده، وخوض الملحددين في أصول الدين، كما قال،

ومنهجهم في اللّجاجة وطلب الغلبة، كل ذلك لم يدعه حتى استغرقه في الرد عليهم، على مثل منهاجهم من النظر. ثم دارت به الدنيا، لما بلغه أن بعض جهالهم يعدل القرآن ببعض الأشعار، ويوازن بينه وبين غيره من الكلام.

وأنت تستطيع أن تقرأ كتابه فصلا فصلا، لتجد مصداق ما أقول لك. حتى إذا انتهى إلى الذي هاجه، من موازنة القرآن ببعض الأشعار، هب إلى تسفيه هذه الموازنة، فدعاك في أوسط كتابه أن تعتمد معه إلى مالا تشك في جودته من شعر امرئ القيس، ومالا ترتاب في براعته، ولا تتوقف في فصاحته، كما قال في كتابه (ص: ٢٤١)، فطرح بين يديك هذه القصيدة وجعل يفصلها وينقدها ويمحو من محاسنها ويثبت، ويقف بك على مواضع خللها، ويفضي بك إلى مكان ضعفها؛ ولم يزل يعريها حتى كشف الغطاء عن عوارها، ثم ختم ذلك بقوله: "وقد بينا لك أن هذه القصيدة ونظائرها، تتفاوت في أبياتها تفاوتاً بيناً في الجودة والرداءة، والسلاسة والانعقاد، والسلامة والانحلال، والتمكن والاستصعاب، والتسهيل والاسترسال، والتوحش والاستكراه، وله شركاء في نظائرها، ومنازعون في محاسنها. ومعارضون في بدائعها".

فلما انتهى من ذلك اففتح فصلا شريفا نبيلًا، ذكر فيه آيات من القرآن، وحاول أن يقفك على بدائع نظمها وبيانها، وهذا الفصل هو أدل الدليل على أن الباقلا نى ، لو كان استقام له المنهج الذي ذكرناه ، لبلغ فيه غاية يسبق فيها المتقدم، ويكد فيها جهد المتأخر، ولكنه لم يزد في هذا الفصل على أن جعل يوقفك على بيان شرف الآيات لفظًا ومعنى، ولطيف حكايتها، وتلاؤم رصفها، وتشاكل نظامها، وأن نظم القرآن لا يتفاوت في شيء، ولا يتباين في أمر، ولا يختل في حال، بل له المثل الأعلى، والفضل الأسنى (كتابه ص ٣٠٢، ٣٠٥). وذكر تناسب الآيات في البلاغة والإبداع ، وتمائلها في السلاسة والإعراب، وانفرادها بذلك الأسلوب، وتخصصها بذلك الترتيب. أما غيرها من الكلام. فهو يضرب في مجاريه، ويختل تصرفه في معانيه. وهو كثير التلون، دائم التغير والتنكر. ويقف بك على بديع مستحسن ، ويعقبه بقبيح مستهجن، ويأتيك باللفظة المستنكرة، بين الكلمات التي هي كاللآلى الزهر، (كتابه ص ٣١٣، ٣١٤). ثم انتهى إلى قوله في القرآن : (وعلى هذا فقس بحثك عن شرف الكلام ، وماله من علو الشأن، لا يطلب مطلبًا إلا انفتح ، ولا يسلك قلبًا إلا انشرح، ولا يذهب مذهبًا إلا استنار وأضاء، ولا يضرب مضربًا إلا بلغ فيه

السماء، ولا تقع منه على فائدة فقدرت أنها أقصى فوائدها إلا قصرت، ولا تظفر بحكمة فظننت أنها زبدة حكمها إلا قد أخللت. إن الذي عارض القرآن بشعر امرئ القيس، لأضل من حمار باهلة، وأحمق من هبئقة، (كتابه ص ٣٢١، ٣٢٢).

وصدق الباقلاني في كل ما قال، إلا أنه لم يزد على أن بين خلوّ القرآن من الاختلاف والتغير، وبراءته من كل ما يلحق كلام الناس من عيب وخلل، وكل ما هو قرين لضعف طبائعهم، وإن استحكمت قواهم، ودال على عماهم عن كثير من الحق، وإن استنارت بصائرهم. ولعمري إنه لحق لا ينال منه الباطل، ولكنه غير الذي ينبغي أن نتطلبه من كشف أصول البيان التي يفارق بها بيان القرآن بيان البشر من الوجه الذي فصلناه.

وليس هذا موضوع بحثنا الآن، ولكن بحثنا عن (الشعر الجاهلي) وما كان من أمره. فهذه الموازنة التي هاجت الباقلاني، كما ذكر هو، حملته على هتك الستر عن معلقة امرئ القيس، ليكشف للناس عيها وخللها، لا ليستخرج منها خصائص بيانهم، وكيف كانت هذه الخصائص مفارقة لخصائص بيان القرآن. فلما زل الباقلاني هذه الزلة، وأخطأ الطريق، زل به من بعده وأخطأه، أخذوا الشعر الجاهلي كله هذا المأخذ، ولكن العجب بعد ذلك،

أن (الشعر الجاهلي) ظل عند البلغاء وجمهور الناس هو مثقف
الأسنة، والحجة على اللغة، والشاهد على النحو، وما إلى
ذلك ولكنهم إذا جاءوا لذكر القرآن وإعجازه، اتخذوه هدفًا للمقابلة
والتفلية، إظهار العيب، وتبيين الخلل، بإزاء كلام برئ من كل
عيب وخلل، فبقى الأمر أمر موازنة لا عدل فيها. كان حسبيهم من
الدليل أن أهل الجاهلية، بتركهم معارضة القرآن بشعرهم أو
كلامهم، هو إقرار لا معقب عليه بفضل هذا القرآن على شعرهم
وكلامهم، فلم تكن بالبقلائي حاجة إلى سلوك هذا الطريق الذي
سلكه، إلا ما حملة عليه ما نعق به جاهل من جهال الملحدة، من
الموازنة بين الكلامين، وتفضيل شعرهم على القرآن!!

وكان قد نازع ذلك باب آخر من اللجاجة، في الموازنة بين
شعر الجاهلية، وشعر الحداث من شعراء الإسلام، ظل الجدل في
تفضيل أحدهما على الآخر بابا تفتحه الألسنة طلبا للمغالبة
الظهور، وداخل ذلك من الإزراء على الشعر الجاهلي وعينه ما
داخل، فكان هذا أيضًا صارفا عن مدارسته على الوجه الذي
تطلبناه في صدر حديثنا، وفي خلال ذلك كله، تجمعت على فهم
الشعر الجاهلي أخطاء شديدة الخطر، غشت حقيقته بحجاب كثيف
من الغموض، زاده كثافة ما لحق الشعر الجاهلي من التشتت

والضياع، وما أصابه من اختلال الرواية بالزيادة والنقصان ،
والتقديم والتأخير ، حتى اختلطت فيه المعاني أحيانا اختلاطا،
سهل لكل عائب أن يقول فيه ما عَنَّ له. ومع كل ذلك أيضًا، بقي
الشعر الجاهلي، مثقفا للألسنة، ومعدنا لشاهد اللغة والنحو
والبلاغة .

... فليت شعري أي بلاء تُرى أصاب هذا الشعر !!
ثم تتابعت العصور على ذلك، على ما هو أشنع منه، حتى
أفضينا به في هذا العصر الحديث إلى أقبح الشناعة، يوم فرض
الاستعمار الغربي الغازي، على مدارسنا منهجاً من الدراسة لا
يقوم على أصل صحيح، كان يرمى في نهايته إلى إضعاف دراسة
العربية إضعافاً شائئاً، لا مثيل له في كل لغات العالم التي يتلقاها
الشباب في معاهد التعليم على اختلاف درجاتها. ثم طُمّت
الشناعة بعد سنين ، حين عزلت اللغة العربية كلها عزلاً مقصوداً
عن كل علم وفن ، أصبح الشباب يتعلم لغته على أنها درس
محدّد، هو ثقيل بهذا التحديد المجرم على كل نفس ، وبخاصة نفس
الشباب الغض. ثم لما أُنشِئت الجامعة، دخلها هؤلاء الشباب على
ما هم فيه من الملل بلغتهم، ومن الاستهانة بأمرها، طلع قرن
الشیطان بفتنة (الشعر الجاهلي) والتشكيك في صحة روايته،

وطار الشر إلى الصحافة، فاتخذت اللغة القديمة كلها، لا الشعر الجاهلي وحده، مادة للهزء والسخرية، وللنكتة والزراية، لا بل تنذرًا بكل من بقى على شئ من المحافظة على سلامة اللغة، سلامة هي كإبراء الذمة لا أكثر ولا أقل .

هذا تاريخ مختصر للأسباب التي وقفت بالشعر الجاهلي حيث وقف قديما، فحالت بين علماء البلاغة والمنهج الذي كشفته وبينته، وكان لزاما عليهم وعلينا أن نسلكه لدراسة (إعجاز القرآن) دراسة صحيحة سليمة من الآفات. وهو تاريخ أشد اختصارا للذي تبع ذلك في العصر الحديث، لما صار (الشعر الجاهلي) ملهاة يتلهى بها كل من ملك لسانا ينطق ، حتى ألقى ذلك كله ظلا من الكآبة والظلمة على دراسات المحدثين في الجامعة وغير الجامعة، حين يدرس أحدهم هذا الشعر، هذا الشعر الذي كان حين أنزل الله القرآن على نبيه صلى الله عليه وسلم ، نوراً يضيئ ظلمات الجاهلية ، ويعكف أهله على بيان عكف الوثني للصنم، يسجدون لآياته سجدة خاشعة لم يسجدوا مثلاً لها لأوثانهم قط. فقد كانوا عبدة البيان قبل أن يكونوا عبدة الأوثان! وقد سمعنا بمن استخف منهم بأوثانهم، لم نسمع قط بأحد منهم استخف ببيانهم .

وأنت خليف أن تعرف أن الشيء الذي طلبته واحتججتُ له ، وحاولت أن أكشف عن منهاجه ومذهبه ، إنما يتعلق بخصائص البيان في القرآن ، وخصائص بيان البشر على اختلاف ألسنتهم ، وأن مخرج هذا غير مخرج هذا ، وأن (الشعر الجاهلي) ، إنما هو مادة الدراسة الأولى ، لأن القرآن نزل بلسان العرب ، والذين نزل عليهم ثم تحداهم وأعجزهم ، هم أصحاب هذا الشعر والمفتنون به وبيانه. وهذا باب غير الباب الذي افتتحه الباقلاني ، ثم فجر عيونه إمام البلاغة (عبد القاهر الجرجاني) (المتوفى سنة ٤٧٤هـ) في كتابيه (دلائل الإعجاز) ، و (أسرار البلاغة) ، ثم أبدع فيه العلماء ما أبدعوا ، وزادوا فيه عليه ونقصوا. وكان ذلك بعد أن أغلق الباب الذي فصلنا القول فيه ، وكان هو الجدير بأن يفتتحه الباقلاني وعبد القاهر .

فإذا تم ما دعونا إليه لأهل هذا اللسان العربي يومًا ما ، وعسى أن يكون ذلك بتوفيق الله ، فسيكون ذلك فتحًا مبینًا ، لا في تاريخ البلاغة العربية وحدها ، بل في تاريخ بلاغة الجنس الإنساني كله. وسيكون أيضًا مقنعًا ورضى لهذا (العقل الحديث) الذي يتطلب في معرفة (إعجاز القرآن) ما يرضى عنه ويطمئن إليه ، وليس هذا فحسب ، بل إن أهل الحق من أهل الإسلام ،

سيجدون يومئذ وسيلة لا تدانيها وسيلة ، تسهل لهم ما استغلق
 عليهم من دعوة الناس إلى كتاب الله ، الذي خص به العرب ،
 وجعل فيه ذكرهم على الدهر حين أنزله بلسانهم ، ولكنه جعله
 هدى للبشر جميعاً عربهم وعجمهم . يومئذ مستبطل فتنة (ترجمة
 القرآن) من أصلها ، لسبب ظاهر أشد الظهور . فإن البشر إذا لم
 يكن في طاقتهم بالسنتهم التي يبدعون في شعرهم ونثرها ، أن
 يأتوا ببيان كيان القرآن ، تدل تلاوته على أنه بيان مفارق لبيان
 البشر ، فمن طول السفه وغلبة الحماقة ، أن يدعى أحد أنه يستطيع
 أن يترجم القرآن ، فيأتي في الترجمة ببيان مفارق لبيان البشر . فإذا لم
 يكن ذلك في طاقة أحد ، لم يكن لهذه الترجمة معنى ، بل سيكون فيها
 من القصور والتخلف ، ما يجعل القرآن كلاماً كسائر الكلام ، لا
 آية فيه ولا حجة على أحد من العالمين ، ولا توجب ترجمته على
 أحد أن يؤمن بما فيه ، إن خالف ما يجري عليه اعتقاده أو علمه ،
 إلا إذا آمن من قبل أنه كتاب منزل من السماء . وهذا عكس لآية
 القرآن ، وهي أن بيانه هو الدليل القاطع على أنه ليس من البشر ،
 وأنه كتاب منزل من السماء ، وأنه هو كلام رب العالمين الذي
 تعبدنا بتلاوته ، والذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم :
 (الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة . والذي يقرأ القرآن

ويتتبع فيه ، هو عليه شاق ، له أجران). وقال أيضاً : (من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشرة أمثالها. لا أقول (ألم) حرف، ولكن أقول ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف).
وأما بعد، فعسى أن يكن الله قد ادخر لآخر هذه الأمة، بعض ما يلحقها بفضل أولها، فتفتح بالقرآن آذاناً صماً، وعيوناً عمياً، وقلوباً غلفاً، وتخرج بهديه الناس من ضلالتهم، وتزودهم به عن اتباع خطوات الشيطان، إلى اقتفاء الصراط المستقيم، والله تعالى يقول لنبيه: "وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَّاَكِبُونَ" [المؤمنون ٧٣-٧٤].

وعسى أن يتم على يد آخرها ما خبأه الله عن أولها ، وعسى أن يكون ذلك غبوعاً في هذا الفصل الذي نجده في أنفسنا بين بيان الله سبحانه، وبيان عباده من البشر: "قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ" [الأنعام ١٤٩]

ورحم الله مالك بن أنس إذ يقول : " لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها"، فإذا كان أولها لم يصلح إلا بالبيان، فأخوها كذلك لن يصلح إلا به. وإن امرأ يقتل لغته وبيانها، وآخر يقتل نفسه، لمثلان، والثاني أعقل الرجلين!

وشكر الله لأخي مالك بن نبي، حيث دعاني إلى كتابة

مقدمة لكتابه ، كتاب (الظاهرة القرآنية)، ففتح لي به باباً من
القول في (عجاز القرآن) كنت أتسهب أن أجه، وباباً آخر من
القول في (الشعر الجاهلي) كنت أماطل نفسي دونه ، وأنا أعلم
أنى قد قصرت في ذلك كله واختصرت، وإن كنت قد أطلت،
وأخشى أن أكن قد أملت، ولكن عذري أن الرأي فيهما كان قد
شابه ما كدره، فبذلت جهدي أن أحص القول فيهما ، حتى أنفي
عنهما القذى ، وأخلصهما من الأذى، مبتغياً بذلك وسيلة إلى ربي
سبحانه ، طلبت القرية عنده (يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ
نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ) [النحل: ١١١].
الحمد لله وحده ، ولا حول ولا قوة إلا به ، ولا فضل إلا من
عنده.

الفهرس

تقديم وتصدير (فهر محمود شاكر) ٧ : ٣

تمهيد ١٠ : ٨

١- سبب تأليف المدخل الأول

(تاريخ حيرنى ثم اهتديت) ١٥ : ١٢

٢- معنى الإعجاز وتفسيره لغة ١٨ : ١٥

٣- تاريخ لفظ الإعجاز والمعجزة ٢٠ : ١٨

٤- معنى "التحدى" وكيف جاء ٢٣ : ٢٠

٥- تتمة القول فى تفسير معنى التحدى ٢٩ : ٢٣

٦- تولد لفظ الإعجاز عند المتكلمين ٣٥ : ٢٩

٧- حجج المتكلمين فى تفسير الإعجاز ومداخلهم ٤٢ : ٣٥

٨- نقض حجج المتكلمين فى تفسير لفظ الإعجاز ٤٧ : ٤٢

٩- تاريخ نشأة لفظ الإعجاز ٥١ : ٤٧

١٠- أسباب ظهور لفظ الإعجاز عند النظام والجاحظ .. ٥٦ : ٥٢

- ١١- الصرفة وتمام وضعها ٥٦ : ٦١
- ١٢- نقض الصرفة عند الجاحظ ٦١ : ٦٧
- ١٣- تتمة الحديث فى نقض الصرفة ٦٧ : ٦٨
- ١٤- كتاب نظم القرآن، وتأسيس علم إعجاز القرآن .. ٦٩ : ٧٣
- ١٥- تتمة الحديث عن تأسيس الجاحظ ومتابعة الواسطى
والرومانى له ٧٣ : ٨٠
- ١٦- أبو سليمان الخطابى، والباقلانى ٨٠ : ٨٧
- ١٧- القاضى عبد الجبار، وعبد القاهر الجرجانى ٨٨ : ٩٦
- ١٨- عبد القاهر والحيرة فى تحديد معنى الإعجاز ،
أسباب تأسيسه لنظرية النظم ٩٧ : ١١٩
- ١٩- أسباب عطن عبد القاهر، وبيان معنى الآية ١١٩ : ١٣٣
- ٢٠- من أصول المنهج ١٣٣ : ١٤٠
- المدخل الثانى (تذوق راعنى حتى تذوقت) ١٤٢ : ١٩٢

رقم الإيداع: ٥٧٠٦/٢٠٠٢ م